

مذاهب و شخصیات



سن اعلام الأدب الفرنسى

بقلم

دكتور جمال حسن صاقر



مذاهب و شخصیات

میں اُعلامِ الادب الفہرست

بہت نام
دکتر عبدالرحمن حسن صاحب

أبحاث نقدية تحليلية

عن بعض شخصيات الأدب الفرنسي

- دينيس ديرو
- جورج لويس دي بوفون
- سانت بيف
- مدام دي ستال
- فيكتور هيجو
- آلان رينيه لساج
- فرانسوا رينيه دي شاتوبريان
- برناردان دي سان بيير

مقدمة

قسم الفريد دى فينى فى مقدمته لتمثيلية « شاترتون » المجتمع الفكرى الى ثلاث طبقات . وبين لنا أن هذه الطبقات تلعب على مسرح الفكر أدوارا مختلفة متباينة ، وشرح لنا قيمة هذه الادوار وقيمة من يقومون بتمثيلها .

أما الطبقة الاولى فيمثلها ذلك الرجل الناجح فى كل أمور الحياة . . ذلك الرجل الذى زوده القدر ووهبته الطبيعة أسلحة مختلفة يواجه بها تيار الحياة القوى ويحوّله الى المجرى الذى يريده . . هو الرجل الذى يجارى الظروف لى يستطيع فى نهاية الامر أن يكييفها على حسب هواه وإرادته . انه الرجل الذى ينجز دائما ما يصمم عليه من أعمال ، ويقول لنا ما يجول فى نفسه من آراء وأفكار . هو رجل قد اقفرت نفسه من الاضطرابات الوجدانية والعواطف الصارخة الثائرة، هو ذلك الذى لا يرى الا المظاهر الباردة للأشياء ، لانه لا يشعر بها أو يحسها ، بل هو على العكس يستنشق عبرها من بعيد ، كأنها الامواج التى تعبق برائحة أزهار مجهولة . هو ذلك الرجل الذى يستطيع أن يعالج التمثيليات والقصص والتاريخ والمقالات السياسية . ولكنه يعالجها بطريقته الخاصة : هو يتوخى سلامة الاسلوب وفخامته يدل الصعود الى وحى الالهامات والعواطف .

هذا هو « رجل القلم L'homme de lettre »

هو رجل محبوب لان الشعب يفهم ما يقول ويستسيغ ما يكتب . . هو رجل الساعة . . هو الرجل الذى مجده القرن الثامن عشر . هذا الرجل ليس فى حاجة الى عطفك أو رحمتك .

يمثل الطبقة الثانية رجل تعلو طبيعته على طبيعة الرجل الاول . ان اعتقاده القوى العميق ، هو المنبع الذى يستقى منه كل إنتاجه . . ذلك الانتاج الذى يشبه الامواج المزبدة التى تسيل على الارض صلدة مقفرة ! .

حكمه سليم لانه يخلو من المؤثرات الخارجية ، ولا تشوبه العواطف المختلفة . عبقريته هادئة تتكون عناصرها من الملاحظات العميقة والمشاهدات الكثيرة . . لغته فخمة رائعة تخاطب العقل تارة والقلب أخرى .

هو الرجل الذى يشعر بأشد الحاجة الى النظام ، لى يواجه به الشعب . . يواجه به تلك النفوس التى يسوق اليها أفكاره

واعتقاداته .. هو الرجل الحر الذي يسير في الاتجاه الذي يحبه ويرضاه -
هو الرجل الذي يلقي البذور وينتظر أن تنبت وتترعرع وتنضج
لكي يحصدتها .. هو الرجل الذي قبض بيده على شعب بأسره .

هذا هو الكاتب الكبير .

هذا الرجل لا يقاسى ولا يتألم لانه يملك دائما ما تصبو اليه
نفسه . قد يهاجم من أعدائه ولكنه سواء قهر أو قهر فجيئته دائما
مكمل بتيجان من الغار ! هذا الرجل - هو الآخر - ليس في حاجة
الى عطفك أو رحمتك .

اما الطبقة الثالثة فيمثلها ذلك الرجل الذي لا يعيش في الارض
بل يعيش في السماء .. هو الرجل الذي لا يصلح لشيء أو يصلح
لكل شيء .. هو الرجل الذي لا يعيش الا لانتاجه المقدس .. هذا
الرجل لا يأتي الى العالم الا في فترات متباعدة .. وهذا من حسن
حظه . ومن سوء حظ البشرية . أن يولد وتولد معه عواطفه ..
العواطف القوية التي تلقى به الى عوالم من الاحلام التي لا نهاية لها .
ان حساسيته قوية متنبهة حتى أن الاحداث التي لا تكاد تؤثر في
غيره نراها تدميه الى الاعماق . هو يكره المجتمع لانه يفهم المجتمع
.. يفهم تياراته بجلاء وعمق لان عينه تنصب مباشرة على الاسباب
والعلل . ولكنه يصمت ويبتعد وينطوي على نفسه أو هذا ما يخيل
الينا . فنفسه في الحقيقة مشتتة متأججة تنفث الشرر كأنها فوهة
بركان وأخيرا هو ذلك الرجل الذي يسير ولا يعلم الى أين يسير !

هذا هو الشاعر !

هذا الرجل يستحق كل دموعك وكل رأفتك وحنانك : اغفر له
وانقلده ومهد له أسباب حياة مضمونة ، لانك اذا تركته لشأنه فقد تركته
.. للموت .

هو يصيح في الناس : انا أوجه حديثي اليكم ، فاجعلوني أعيش .
فيجيبه الناس : نحن لا نفهمك . والناس على حق في اجابتهم
هذه .

هو يصيح للقدر : استمع الى ، ومهد لي سبيل الحياة .
فيجيبه القدر : وماذا أصنع بك ؟ ، والقدر على حق في اجابته .
الناس كلهم على حق ما عداه هو . ولكن ، هل هو على خطأ ؟
وماذا يجب عليه أن يصنع ؟ .. لاشيء ، سيبقى شاعرا الى أن يموت !
والآن هيا معي ايها القارئ الكريم لنزور هذا المجتمع ونعيش
فيه برهة نخالط فيها طبقاته هذه ، ونضطرب مع أفرادها فيما
يضطربون فيه .. متخذين من « جوستاف لانسون (١) » ، وأناطول
فرانس (٢) مرشدين لجولتنا في مجتمع الفكر ..

ج - ح - ص

(١) Gustave Lanson : Histoire illustree De la litterature

Française.

Anatole France . Le genie latin.

(٢)

دینیس دیدزو

(۱۷۸۴ - ۱۷۱۳)

منهج البحث

- ١ - لوحة حياته *
- ٢ - شخصية ديدرو *
- ٣ - آراء زيدرو الفلسفية *
- ديدرو « رجل الطبيعة »
- ٤ - فن ديدرو *
- ٥ - « صالونات » ديدرو *

لوحة حياته :

ديدرو من النجوم المشرقة ، التي لمعت في سماء الادب الفرنسى خلال القرن الثامن عشر ، وهو زهرة عطرة في باقة العبقرية ، التي أخرجتها أرض فرنسا الخصبة الطيبة .

ولد دينيس ديدرو ، سنة ١٧١٣ ، وتأبط ذراع الزمن ، وسار معه قاطعا أشواط الحياة ، ملاقيا فيها ما يلاقيه المرء عادة من أحداث ونوازل . ولكنه كان - شأن كل العباقرة - يستفيد أكبر الاستفادة من صور الحياة الجادة في السير ، وأضابير التاريخ التي تزداد يوما بعد يوم .

رفض ديدرو أن يغفل روحه الطليقة بأغلال الوظيفة البغيضة والعمل المكتبى الرتيب ، لأنه شعر منذ وجد في هذا العالم ، أن روحه التي تقمصت جسده قد خلقت لعمل آخر .. خلقت لعبادة الحق والخير والجمال .. خلقت للاشتغال بالادب والفكر والفلسفة ! .

ولكن ديدرو ، انحدر من أصلاب أسرة فقيرة لا تملك الا قوت يومها فورث عنها الفقر والحاجة . فلا مفر اذن من العمل ليعيش ، وليكبت تلك الاصوات القوية المدوية التي تصرخ بها الحياة فى سمع الاديب المعوز !! فليختر اذن العمل الذى لا يتعارض مع روحه الحرة وفكرة الطليق .. فليعط بعض الدروس ، فى الموضوعات التي تشغل فكره وتداعب خياله . وليقم باعباء بعض المكتبات ، فيكون عمله بين الكتب .. تلك العوالم الحاضرة الارواح ، الجياشة بحياة مؤلفيها ومبدعيها .

وفى سنة ١٧٤٥ عهد اليه بتصنيف « الانسكلوبيديا » ، أو دائرة المعارف التي ظهر أول جزء من أجزائها سنة ١٧٥١ . وفى تلك الاثناء ، تفتح ذلك البرعم المقفل ، حينما سلطت عليه أشعة الاطلاع والتفكير . . . تفتحت عبقرية ديدرو ، وواجهت الحياة فأثرت فيها وتأثرت بها . وهكذا أخذ يخرج للناس روائع فكره ومعجزات عقله فلما طبعت رسالته القوية البليغة ، تلك الرسالة التي أسماها « رسالة العميان (١) . . » ذاع صيته ، ورددت اسمه الالسنة ، ورشح ليكون عضوا فى الاكاديمية الفرنسية . ولكن ذلك الترشيح ، لم يخرج الى حيز التنفيذ لأن الملك لم يكن راغبا فيه ! ! وهكذا حرم هذا المعهد الكبير من عبقرية دينيس ديدرو العظيمة . وكأن القدر ، الذى ناصبه العداء فى شخص ملك بلاده ، أراد أن يكفر عن خطيئته ، فحول أنظار « كاترين » العظيمة اليه فأخذت تمده بمساعداتها الادبية والمادية

(١) Lettre Sur les a veuglesa L'usage deceux qui voient.

«وازاء هذا العطف الكريم سافر دينيس الى « سانت بطرسبرج »
تلكسكرها على صنيعها .

وهكذا سار ديدرو في الحياة : فقيرا بماله ، غنيا بعقليته
وفكره الى ان مات سنة ١٧٨٤ .



شخصية ديدرو :

« رأس ضخمة مستديرة ، تتكىء على كتفين عريضين ، كأنها
الديك القابع في قمة الساعة الدقاقة : هذه الرأس لا تستقر أبدا في
نقطة معينة ، ولا تهدأ مطلقا في اتجاه واحد .. التفاتاتها سريعة
مباغثة في حركاتها الحسية ، ورغباتها ، ومشروعاتها ، وأفكارها » .

« أنا ابن قريتي ، وسياحتي في العاصمة ليست الا لونا من
التسلية المستمرة التي تصقلني وتهذبني » .

انحدر دينيس من « لانجروا » ولكنه سرعان ما تأقلم في جو
باريس ، مدينه النور ، وأصبح باريسيا قحا كما يقولون . لقد
صقله حقا هذا التأقلم وهذبه ، ولكن ليس كما قدر هو واعتقد .
فعقله قد احتفظ بعجلته وسرعته وعدم استقراره ، ولكنه - من ناحية
أخرى - كان يتمتع بعمق التبصر الذي يجارى هيجان ذلك العقل
وثورته .

كانت نظرة ديدرو وابتسامته ، والتجاعيد الساكنة في جبهته
والتفاتاته الصريحة ، كان كل ذلك يتكلم عنه قبل أن يجسد هو من
يجاذبه أطراف الحديث . ولم يكن من يراه في حاجة لموهبة خارقة كي
يحكم عليه أنه شخص ثرثار .. نعم ! كان ديدرو ثرثارا يقص القصص ،
ويزجي النصائح ، ويتكلم في كل موضوع ، ويناقش في كل صغيرة
وكبيرة ، ولكن كل ذلك عن تفكير وتدبر ، واخضاع لموازين منطقية
صحيحة وهو متمكن من موضوعه ، مالك لناصرته ولذلك .. يجب
أن يتكلم ! ويتصف بتلك الخصلة التي اشتهرت بها جماعات
الناس في بلده ومسقط رأسه ونعني بها الصراحة . ولذلك نجده يقذف
بحقائق الناس في وجوههم ويقول عنهم ، وأمامهم ما يدور في خلد .
وهكذا تنفجر هذه الحقائق السافرة العارية على رأس من تخصصه
وتعنيه ، وهو يتمتع بروح فكاهية تمتزج بها سخريه لاذعة قاسية ،
يلفظها أمام الحضور في جرأة عجيبة من غير أن يقيم وزنا لاحد ، لان
هذه السخريه تفور في رأسه ، وتغلي في مرجل عقله .. فهو لا بد أن
يتكلم !

لم يكن ديدرو ، ابن القرية الصغيرة ، ليصلح لمواجهة العالم
الفسيح برحمته وضحيجه ، بل كان ربيب « الصالونات » التي فتحت
له أبوابها ، بعد أن سمعت ببعد صيته واستفاضة شهرته ، وجد
ديدرو اذن نفسه - كغيره من الناس - بين جماعة من الاصدقاء يعلم

عنهم الكثير لانه يراهم اثناء العمل ، وبناء هياكل المشروعات لتنظيم حياتهم واصلاح عوجها فماذا يكون موقفه منهم ؟ ايقف موقف المتفرج يرى ولا يعمل ؟ لا ! انه لا يقنع بهذا الموقف ولا يرتضيه لنفسه لانه يريد أن يتحرك و يعمل ! ولذلك نراه يقذف بنفسه في محيطهم ، ويفرض وجوده على وجودهم بل وعلى عواطفهم الخاصة فينصح لهم في شدة المستبد ، وامارة صاحب النفوذ . انه الغراب الذي يسحق الثواه ! ومن هنا نستطيع أن نفسر تلك الجفوة التي قامت بينه وبين جان جاك روسو . فهو يريد أن يتسلط ويستبد . يريد أن يبقى روسو في باريس ، ويريد أن يبعث به الى جنيف . . انه يصمم ، ويدبر دفة العمل . . لانه يجب أن يتكلم !

أما خصال ديدرو الاخرى ، فعالية سامية . . مريحة ! فهو عطوف ، طيب القلب ، تجول في أرجاء نفسه عواطف رقيقة ، ونزعات معتدلة فاذا أردنا أن نرسم له لوحة ، وهو في الوسط العائلي وداخل محيط الاسرة خرجت هذه اللوحة زاهية الالوان مشرقة الظلال . منسجمة الخطوط . فهو الابن البار ، والاخ المخلص ، والاب الحنون ، والزوج المحب . فاذا تعدينا ذلك الى الصداقة ، الفينا الصديق الحميم الذي تنبع صداقته من قلبه الحي . هو دائما على قدم الاستعداد للبذل والاخلاص ولا يطلب من صديقه الا الخضوع لشرط واحد هو أن يفتح له قلبه ، وينقى له ضميره . ويتركه بعد ذلك يتصرف على ضوء ما قرأه في ذلك القلب وما استششفه من هذا الضمير ! !

وهكذا عبر ديدرو عصره وهو في ثورته النفسية هذه ، تحيطه من كل جانب لا يستطيع التخلص منها أو الفكاك من أسرها ، ولكنه رغم ذلك لم يصب بالتعب أو الاجهاد بل على العكس ، كان دائما يشعر بالنشوة الجامحة من ذلك التهيج وتلك الثورة التي كانت دائما تتخمر في رأسه .

لقد كان اسلوب ترتيب افكاره ، وتنظيم اقواله فريدا في نوعه . فهو المحدث الذي تصدع قوة حديثه رأس المستمع اليه ، وتسبب لها نوعا من الدوخان والتخدير . لقد كانت محادثاته نارية ساحرة ، تحوطها هالة ناصعة من الدخان القوي النفاذ والسرعة الخطاطفة المبالغية . وكانت تلك المحادثات تتكون من عناصر كثيرة متغايرة . من صور الطبيعة ، والافكار المجردة ، والعلم الجامد ، والاقاصيص وفلسفة ما وراء الطبيعة ، والاحلام والفروض ، والنظريات المتسدعة ، بل وموضوعات السحر والتنجيم التي تسبب الدهشة والاستغراب كل ذلك وهو جالس بجانب موقد النار المشتعل في منزله بشارع (تاران) أو في قهوة رجينس أو في بيت مدام ديبيناي أو في جرانديفال عند البارون هولباش . في كل هذه الامكنة ، كان ديدرو دائما على اهبة الاستعداد لاثارة موضوعاته السالفة اذا حركته كلمة ، أو استلقت نظره اشارة عابرة . لم تكن محادثاته هي كل شيء . فبعد أن يفرغ من قصصه ومساجلاته وصياحه نراه يتناول قلمه ويدبج الصفحات الطوال وهو

يتجاذب أطراف الحديث الهادئ المتزن تارة مع محدثه الاول وأخرى مع محدث آخر . هذه الصفحات الطوال التي كتبها ديدرو وهو يتكلم مع من حوله هي التي كونت فيما بعد رسائله الشهيرة الى فالكوني ، والآنسة فولاند . ولكن كل هذه الاحاديث وتلك الخطابات لا يمكن أن تقاس الى جانب انتاجه الاصلى الذي كانت تفرزه عبقريته في الحين بعد الحين لقد كانت تلك الخطابات والاحاديث تريحه من كتبه اذا أجزنا لانفسنا أن نفرض أن تلك الكتب كانت تسبب له بعض الاجهاد !! فديدرو كان يكتب كما كان يتكلم : بسهولة عجيبة ، وبروح فكهة ساخرة ولذلك لم يكن يشعر قط بأقل تعب أو اجهاد . ولقد « طهر ذلك عقله » كما يقول أرسطو كان ديدرو في حاجة ماسة الى الكتابة كما كان في حاجة الى الكلام لذلك لم يرسم لنفسه منهجا خاصا يسير بمقتضاه ولا يحيد عنه بل ترك نفسه على سجيته : ينطق لسانه بما يريد أن يقوله مباشرة من غير تنميق أو تزويق وكذلك كان قلمه . لقد كان مدفوعا الى الكلام والكتابة بقوة غامضة قاهرة غالبة لم يستطع هو نفسه أن يفسرها أو يفهمها . كل ما هنالك أنه كان يشعر - عقب الكلام أو الكتابة - أنه قد استراح أو تخفف من حمل مجهول .

في احاديث ديدرو وكتبه أشياء كثيرة غير مستحبة ترجع الى ما سبق وشرحناه وفصلنا فيه القول اعني حبه للارتجال والصراحة والسخرية المفرطة . ولقد لازم ديدرو طريقته هذه طوال حياته ، ولم يترنأ الا اثناء حقبة قصيرة من عمره ، هي تلك المدة التي أخذ على عاتقه فيها الاشتغال بتصنيف الانسكلوبيديا أو دائرة المعارف . . ففي هذه الاونة نراه يتكلف التحفظ ويهجر فحش القول لانه شعر أنه من اللازم عليه - اذا أراد أن ينهى عمله على خير الوجوه ، ويصل به الى بر السلامة - أن يخفض من نعمته . ويلجم لسانه أثناء العمل ! ان هذا المجهود الذي بذله ديدرو في السيطرة على فكرة الجموح ، ولسانه الذي اعتاد أن يصول ويجول أثناء اشتغاله بدائرة المعارف ، ليعد حقا من خوارق المعجزات التي أدهشت كل من عرفه واتصل به . وهنا يحق للقارئ أن يتعجب هو الآخر ويتساءل عن السبب الخفي في تحقيق هذه المعجزة الخارقة ! هو سبب بسيط غاية البساطة لقد تحققت المعجزة لان ديدرو كان يرغب في النجاح فكافح وجاهد لتحقيق هذه الرغبة والوصول بعمله الى القمة ولذلك نراه قد تنقب بالاحتشام ، والتزم التحفظ الشديد في كل ما يكتب . هذا التحفظ يتمثل في عدم مهاجمة الحكومة أو الدين ، لان تلك المهاجمة اذا وقعت من جانب ديدرو كانت تستسبب أكثر من فضيحة . ولكن هدوء ديدرو الظاهري المفتعل كان وراءه ما وراءه ! فلسانه كان يتحرق للانطلاق والنطق ، وعقله كان في حاجة قصوى الى الإفراز من غير عائق يعوقه أو مانع يقف في سبيل مده وطوفانه ! كم فجر هذا العمل الصامت من براكين في نفسه ! ان كل ما لم يقله في مقالاته هذه نجده قد دبجه في افاضة واطناب بمقالاته ورسالاته التي ظهرت بعد اتمام عمله في الانسكلوبيديا ، لقد كتب هذه المقالات والرسائل بقوة وشدة ، لانه كان قد اختزن مادتها في عقله فأخذت تتخمر ، وتغلي وتغور حتي اذا ما وجدت منفذها الى الورق خرجت مندفعة في ثورة مجتونة ! .

لم يكن ديدرو يكتب لأغراض خاصة معينة محددة كابتغاء المجد أو النجاح أو الكسب المادى كما أنه لم يكن يكتب للناس ، كان يكتب لنفسه ليخلي فكره ويعصره ويطرده ما فيه ! والدليل على ذلك أن الكثير من انتاجه الفنى قد وجد مدفونا بين أوراقه الكثيرة . ذلك الانتاج الذى تدرج تحته تلك الكتب القيمة العظيمة :

« تأملات فى ترجمة الطبيعة »

• *Pensees Sur l'interpretation De La nature*

و « درامياته » و « مناجاة فيلسوف مع المارشال دى »

Entretien Dun Philosophe avec lamarche De

هذه الكتب هى التى ظهرت فى حياته ونشرت على جمهور القراء . أما كتبه الاخرى فهى التى وجدت مدفونة بين باقى أوراقه كما سبق وأشرنا . ومنها « حلم دالمير » و « جاك المؤمن بالقضاء والقدر »

Reve De dalembert et jacques Le fataliste.

وهذه الكتب وغيرها تضم أقوى انتاج ديدرو وأضعفه .

مما سبق يمكننا أن نستنتج أن كل ما يعنى ديدرو هو الكتابة ، والتمتع بلذة ما يكتبه ، أما أن يضع اسمه على ما يكتب ، فإن ذلك لم يكن يضيف أى سرور على سروره الاصلى الجوهرى . لم يكن ديدرو يترك الخواطر التى تمر فى شريط خياله دون أن يقفل عليها عقله وهناك تمر فى أجزاء هذه الآلة العجيبة حتى تنضج وتصبح صالحة (للورق) وكذلك الافكار لم يكن ليتركها تعبر عقله كالطيور السانحة دون أن يقتنص منها شيئا بل كان يحبس ما يقع منها تحت ذاكرته كل ذلك ليكتب ، ويكتب حتى لا تتعطل الآلة . وهكذا بعد ثلاثين سنة من هذا السيل المنهمر من غير انقطاع ، نستطيع أن نقول أن ديدرو قد مات ولا يشغل باله الا أن عنده أيضا ما يريد أن يقوله أو يكتبه !!

ان هذه الشدة التى امتاز بها ديدرو . . شدة ترجيع أفكاره الى أصلها الحى كانت نتيجة مباشرة لنشاطه المتزايد ، وحيويته المتدفقة فى الاستغراق فيها .

فان تلك الآلة الجبارة القادرة ، التى لا تنفك عن الدوران والعمل ، والضجيج والصياح ، فى جمجمته كانت دائما معرضة لضغط قوى شديد من الخارج ، ولذلك كانت دائما ابدا تخرج عملا مستمرا غير منقطع . وآلة هذا شأنها يجب أن يمددها صاحبها باستمرار بالوقود الكافى الذى يجدد فى أوصالها الحياة ويساعدها على العمل والدوران . لم يكن ديدرو بالعقريّة الخالقة المبدعة حقا . ولكنه كان قادرا على خلق عوالم من نفسه الخصبة الطيبة . . ومن وجوده ، وهو بهذا يبعد تمام البعد عن روسو واضرابه من الادباء والفنانين والفلاسفة وبهذا السبب عينه اضطردى نيس أن يكون عالما ومحب للاستطلاع . ولقد أنصفه أميل فاجيه المؤرخ الشهير حينما قال عنه : « انه يجرى وراء جمهرة من الاشياء لم يكن العلم بها شائعا فى زمنه » . فنحن حينما نرى مفكرى فرنسا - الذين لا يرعبهم شئ فى الميدان الفكرى - يتقهقرون أمام « مابينوزا » ، لامن ناحية اقدامه

وتجاسره في التفكير ، ولكن أمام ذلك العمق الذي يشيع في كل مذهبيه وآرائه . نرى ديدرو ، من غير صخب أو ضوضاء ، يشبه ذلك العمق وتلك الشدة بأسلوب « ليينز » ، ويأخذ في التصدي له والوقوف أمامه غير وجل على رأسه من التحطيم ! . فلا غرابة إذن أن يعرف بعد ذلك في أرض فرنسا بصاحب « الرأس الألمانية » .

لقد عالج ديدرو الرياضيات وعلوم الطبيعة ، والتاريخ الطبيعي وعرف كل فروع العلم الحديث وتجاربه . وكذلك تعمق في معرفة فن الرسم والموسيقى أما ديدرو في ميدان الادب ، فهو القارئ اللبق ذو المحصول الواسع ، والمادة الغزيرة . لقد درس الآداب الأجنبية وآداب القرن السابع عشر .

وهو يعلم الكثير عن الآثار القديمة . وعلمه هذا ليس نتيجة مطالعة قارئ عابر يمر على ما يقرأ من الكرام كما يقولون ، لا ، فهو يتتبع التفاصيل ، ويدأب في البحث عن الدقة والصحة .

فهو إذا قرأ « هوراس » ، لم يقرأه من ناحية واحدة ، بل قرأه من نواحيه المتعددة وزواياه المختلفة : أو من ناحيته الأدبية اللغوية ثم من ناحيته الفنية الشعرية ، وأخيرا من ناحيته التاريخية . أي « هوراس » كمؤرخ . وإذا قرأ « بلين » ، فهو يقرأ دائما من ناحيته الأدبية اللغوية ولكننا كذلك نجده لا يهتمل ناحيته الفنية في الرسم والآثار القديمة ، فهو يأخذ كل سفر ويقرأه على حدة ، كما يفعل العالم المتخصص . . أي يقرأه بعين ذلك العالم وعقله . يقرأه على هذا النمط وتلك الطريقة قبل أن يمزجه بأحلامه الخاصة !

وهكذا يتقدم ديدرو : لم تكن خصوبة ذهنه ذاتية . فهو دائما في حاجة الى ضربة من الخارج لتحرك فيه زوابع فكره وطوفان عقله .

ان عقله دائما في حالة تذبذب واهتزاز : فالآلة تصفر وتدوى وتخرج البخار والدخان ثم تصدر عنها الضوضاء والضجيج . وهنا يذهل المرء من عدم التناسق في عمل الآلة المدوخ ومن ضجيجها الجهنمي الحبيث . . . كل ذلك من أجل حركة بسيطة خفيفة ، هي التي أعطت الحياة والنشاط للآلة فدارت وفرقت و . . . !

والآلة المسادية اذا سارت انتجت وكذلك الآلة العقلية حينما تدور تنتج مصنوعات فكرية دقيقة غالية ! تنتج « جاك المؤمن بالقضاء والقدر » .

في مئات الصفحات . لقد كان ديدرو وهو يسطر هذه الصفحات يخضع لحالة نفسية عجيبة . هي الحالة التي تكلمنا عنها قليلا . كانته نفسه تكافح ضغطا خارجيا قويا . والآن يحق لنا أن نتساءل : ألم يكن ديدرو دائما هكذا ؟ لا . فالضربة الخارجية عند ديدرو ليست عاطفة ، أي أنها ليست من الاعمال الايجابية الناتجة من وجوده وتجاربه . بل هي ضربة العقل . ذلك العقل الذي حاول جاهدا أن يترجمها بالكلام أو . . .

الادب • وفوق ذلك فان الترابط بين الحالة الخارجية وبين تفكيره الباطن النفساني ترابط واه غير موجود بالفعل •

ديدرو مفسر بارع مدهش ، وتفسيره يفوق عادة نص المتن المشروح • ولذلك نراه قادراً على (تقليد) كتب الغير وتفسيرها ولكنه اذا تصدى لنقدها فشل ولم يجد القدرة التي تمكنه من ذلك • فهو اذا جلس يستمع الى كتاب يتلى عليه لم يقنع بالاستماع والفهم بل يأخذ أهفته للسفر مع فكرة المؤلف والسياحه معها في أجواء وعوالم لا يعلمها الا هو • وأخيراً ، بعد أن يفرغ القارئ من تلاوة الكتاب نجد ديدرو قد أخذ في سرد وقائع الكتاب وتفاصيله بطريقة مغايرة تماماً عن تلك التي انتهجها المؤلف وسار عليها بطريقته الخاصة وكأنه وضع كتاباً آخر يمكن أن يحل محل الكتاب الاول • أما في المحادثات فديدرو هو هو لا يتغير ولا يتبدل • فان كل ما يقال له في ساعتين كاملتين لا يعنيه فيه الا فكرة واحدة يتصيداها هو من سرب الافكار الكثيرة الطائفة ثم يحملها الى عقله ، ويعمل فيها حتى لتخمر وتكبر ، وتمتد وتسطيل وأخيراً يخرجها للسامع في ثوبها الجديد وكأنها فكرة مبتدعة قد خلقها عقله فيدهش هذا الأخير ! لان فكرته الصغيرة هذه قد تصبح مذهبا كبيرا يسبب له الثورة في بعض الاحايين • هذه هي آلية ديدرو العقلية ... وهي آلية غريبة معجزة ،

آراء ديدرو الفلسفية

ديدرو « رجل الطبيعة »

اذا صرفنا النظر عن دائرة المعارف أو (الانسكلوبيديا) وقد شرحنا الدور الذي قام به كاتبنا الفيلسوف في تصنيفها • وجدنا ديدرو لا يقل بحال عن جان جاك روسو ، وفولتير في القرن الثامن عشر • فقبل روسو ، وحينما كان فولتير لا يزال هائماً في وادي الاحلام أصبح ديدرو بحق « رجل الطبيعة » • واليك موقفه من الطبيعة ، ومنزلتها منه •

دراسات ديدرو الشديدة العمق في الطبيعة أوصلته الى نتيجة وخيمة • فقد أنكر وجود الله وقال : « ان الله لا يوجد في الطبيعة » ولقد شبه ديدرو العالم بكرة ضخمة كبيرة أو عددا من الكرات اللامتناهية العدد تناسب وتتدرج من غير توقف أو انقطاع • وهذه الكرات لا تتبع أى نظام في سيرها وتدرجها ، ولذلك فهي تتقابل وتتصادم وتكون شبكة معقدة من الحركات الضرورية التي لا تضعف قوتها أو تموت أبدا •

أما موقف ديدرو من الأخلاق فموقف عجيب غريب ولكنه طريف في نفس الوقت • ألا تظن أن المرء يمكن أن يكون سعيدا حينما يولد لأنه يجد لذة كبرى في عمل الخير ؟ يجيب ديدرو على هذا السؤال فيقول نعم ! وأن المرء اذا تلقى دراسة ممتازة ، ألا تقوى فيه هذه الدراسة ميله الطبيعي الى فعل الخير ؟ • بالتأكيد !!

ثم يعود فيتساءل : ألم تعلمنا التجارب - منذ قديم الزمان - أنه يجب على المرء ، من أجل سعادته في هذا العالم ، أن يكون شريفا لا نذلا لثيما ؟

وهكذا يمكننا أن نستخلص أهم العناصر التي تكفى لبناء صرح الأخلاق . انها الغريزة والتعليم ، والتجربة .

ان المرء اذا تصنع الخير والفضل لينذهب عن طريقهما الى الجنة، فليس معنى هذا أنه فاضل أو خير . كما أن الصلاة ليست هي عملية الذهاب الى الكنيسة أو البيعة وعدم لمس الأواني المقدسة !!

والطبيعة في نظرديدرو تناقض المجتمع تمام المناقضة فكل الرذائل والشرور التي يتصف بها « الفرد الاجتماعى » من جرائم ، وتعصب ، وحروب ، وآلام ، مصدرها ومتبعا المجتمع . فالمجتمع هو الذى خلق أو اخترع مانسميه بالقوة والامتياز ، ونظام الطبقات والغنى ، والفقر . وكل هذا يمكن أن يترجم بأمانة وصراحة ، يختصر في كلمتين اثنتين هما الجور والاستبداد بالآخرين .

هذا هو ديدرو (الأخلاقى) قوى صريح . يمزج صراحته فى بعض الأحيان ، بفحش القول ، ولكنه دائما أبدا عميق التفكير ، قوى الملاحظة . ولهذا رأيناه يهاجم الأخلاق السائدة فى قوة وشدة ويقول هى نوع من الأوضاع الاجتماعية ، يجب أن تمقت وتبغض . لأنه باسم الأخلاق نربى الأطفال ونمنعهم من بعض اللذات النافعة لمداركهم وعقولهم .

ان نظر ديدرو هذا فى الطبيعة ، ماهو الا اعادة وترجييع لما قاله كل من « رابليه » ، و « بانيجر » ، « الأخ جان » .

ان طهارة النفس ومناعتها وحفظها كلها مخافات لأنها فضائل صناعية ولدها المجتمع ولم تلدها التجارب أو التعليم أو الغريزة . ان الخير هو ما يشعر الانسان بغريزته ويعلم أنه خير . والآن يجدر بنا أن نسأل ديدرو عن الفضيلة . انصت أيها القارىء فما هو ديدرو يجيبنا : ان الفضيلة تنحصر فى كلمة واحدة هى فعل الخير . كل ما يفيد الانسانية هو خير . أما كل ما يؤذى الانسانية ويضرها فهو شر لاشك فيه .

يقول ديدرو : اذا أنا كذبت أو تعاطيت الخمر ، أو فعلت ما هو أردأ من هذا فما أهمية عملى هذا اذا لم يؤثر فى غيرى ، أو يكون له امتداد مشئوم خارج محيطى الخاص ؟ أما اذا نتج من كذبنى ، أو شربى للخمر خيرا لأحد فاستطيع حينئذ أن أقول اننى قمت بعمل طيب محمود . وتفكير ديدرو هذا ترجمه صاحبه الى اللغة العملية . وسار عليه فى حياته الخاصة ولذلك أنقذ من « الرذائل التي تذلل صاحبها وتبخسه حقه » . وكذلك نراه قد ضمن هذه الأفكار وحشرها فى بعض كتبه التي لاتعالج الفلسفة أو علم الأخلاق . والآن ألا يحق له أن يعجب أو يحب ، هذا الانفجار اللذيد ، للنشاط الطبيعى فى كتابه العظيم Neuve De Rameau.

ففيه يقول « ان المهم هو أنه أنت وأنا موجودان » .

وأخيرا نجد ديدرو لا يفرق أو يميز بين الطبيعة والعلم . فالطبيعة عنده هي العلم . لأنها تلد لنا المنهج والاتجاه والنتيجة . ولكن كلمة الطبيعة لا تقف عند مدلولها الجامد ، بل هي تنتهي عند ديدرو الى معنى عصرى . فهو لا يرى مطلقا ، أو لا يؤمن بتلك الطبيعة (الداخلية) التي درسها القرن السابع عشر . والتي نادى فلاسفته ومفكروه « بأن المعرفة واثبات الوجود عن طريق الطبيعة الداخلية أيسر بكثير منها عن طريق الطبيعة الخارجية » ان ايمان ديدرو بالطبيعة الخارجية واضح كل الوضوح في كتاباته وابحاثه ، لأنها جاءت عن طريق « الضربة الخارجية » كما سبق وبيننا .

فلسفة ديدرو هي نفس فلسفة عصره لأنه اعتقد كما اعتقد فلاسفة عصره : « أنه من الواضح أن الطبيعة الخارجية ، والعلوم التي تشرحها وتعالجها يجب أن تكون النقطة التي تهدف اليها أبحاثهم » . ولذلك أعلن دنيس أن عهد الرياضيات قد انتهى . ولكنه أعلن كذلك - وبثقة تكهنية - أن عهد العلم الطبيعي سوف تبدأ دولته . ويعنى بالعلم الطبيعي ، علم وظائف الاعضاء (الفسيولوجيا) ، وعلم الطبيعة من هذه الناحية نادى به ديدرو شباب عصره المثقف ، وقد أحاط ندائه هذا بهالة من التضخيم . ولكن اشاراته التدرجية هذه - ان صح هذا التعبير - كانت تخفى تحتها أفكار العالم .

اذا سرنا مع ديدرو لاحظنا أن التناسب القائم بين العلم والفلسفة قد قلبت أوضاعه رأسا على عقب . فمن المعلوم والمصطلح عليه ، أن الفلسفة كانت دائما تضع مقدماتها وقوانينها وطرقها في معالجة المسائل في خدمة العلم ، ومن ثم يبدأ التعليم في عمله على ضوء ما قدمته له الفلسفة . ولكن الحال عند ديدرو تغير تماما وانقلب الى ضده . فالفلسفة قد تنازلت للعلم عن ترتيب مقدماتها وطرقها ، وأخذت تنتظر اختراعات العلم تستخلص منها قانونا عاما للوجود ! .

ان فلسفة ديدرو هي حقا فلسفة الطبيعة مثل ليينيز الذي يقول :
« ان دراسة العالم غير العضوى دراسة علمية تتغير دائما » .

ولهذا نرى ديدرو قد سبق « هلفيتيوس » ، و « هولباش » في « وضع الرجل في الطبيعة » . وفي اخضاع العلوم الأخلاقية للعلوم الطبيعية .



فن ديدرو : -

ان فن ديدرو هو نظام متسق معتدل مع فلسفته . ولما كانت ناحية انجازه لما يعالج ، والبلوغ به الى قمة التمام لاتعنيه كثيرا ، فسوف نحصر كلامنا فقط على مراميه التي أراد أن يشرحها ، والتي حاول أن يهدف اليها بكتاباتة الفنية .

ان أول ما يستلفت نظر الباحث في فن ديدرو ، هو ما يمكن أن نسميه (بالفن الطبيعي) الذي يعبر أحسن تعبير وأدقه عن الحياة كما هي في الواقع ، وممثل الحياة كما رأهم هو بعينيته ، وخبرهم بعقله وفؤاده . لقد عرفناه دائماً متأثراً بالطبيعة الخارجية ، ولذلك نراه يتقبلها في سهولة ويسر ، ثم يدخلها آتته الجبارة ، وما يلبث أن يخرجها للناس ، وهو واثق بها كل الوثوق .

اقرأ كتابه « المراسلة » فسوف ترى خلال أسطره وبين صفحاته كل هذه اللوحات ، وكل هذه الأفاصيل التي حصدها بمنجل عقله ونظره من الطبيعة . ثم اقرأ له Le neveu De rameau وهو أعظم ما كتب ديدرو - فسوف تجد كل حقائقه ظاهرة لك بوضوح عجيب : في وصف اللغات ، وتقلب اللهجات ، وتغير الحالات . كل ذلك استعاره ديدرو من الطبيعة ، ولكنه لم يقتصر على ذلك بل أضاف إليه - من غير شك - الكثير من عندياته . ولكن هذا العنصر الدخيل على الطبيعة ، عنصر أدب ديدرو الذاتي ، قد امتزج تمام الامتزاج مع المادة (الطبيعية) الأصلية . لأن شدة بصيرته هي التي كانت تحرك القلم في يده .

فهو حينما يغص (يرى) الوجوه ، والحركات ، والامكنة . كل هذا قابض في عينه . حتى أنه اذا تناول القلم ليكتب ، لفظت عينه هذه الصور الكثيرة الى القلم فتحول (يرسم) اللوحة الناطقة المجسمة . وهكذا يصبح كتابه صوراً متعاقبات لا مجرد كلام يأخذ بعضه بتلابيب بعض .

ولكن لهذه الصور أقاصيص ، وهذه الأقاصيص تدخل في دائرة الأدب (الرومانتيكي) فكل ما كتب ديدرو يرمى الى المذهب الابتداعي لأنه مستمد من منبع واحد هو منبع الطبيعة التي يحترمها ولا يهملها غيرها . وأصدق ما يمثل هذا المذهب في أدب ديدرو هو كتابه Neveu De rameau ففي هذا الكتاب تمتزج العناصر الخيالية بالعناصر الحسية ، وتتدافع فيه تيارات الطبيعة الخارجية فتكاد تكتسح أمامها العواطف الآدمية من حماسة وغضب وغيرها . والآن هاك نموذجاً قصيراً يبين لك اغراق ديدرو في المذهب الابتداعي :

« ... وهكذا أخذت العبقريّة مصباحها وأشعلته . ففتح الطائر الصغير الوحيد ، المستوحش النافر ، الضارب لون أجنحته الى الرمادي ، الحزين منقاره ، وابتدأ يغرد أغنيته الخالدة ، وهنا جلجل الغناء في أنحاء الحميلة الصغيرة ، فتقهقر الصمت نشوان من شدة الطرب . وأخذ معه في ركابه المنهزم ظلام الليل . . . »

ان من يقرأ هذه الاسطر يخيل اليه أنه يقرأ لشاتوبريان الذي يمثل المذهب الابتداعي أبدع تمثيل .

أسلوب ديدرو يحوي كل العناصر المهمة الضرورية لدقة التعبير وقوة البناء ، فأنت واجد فيه تحليلات واجمالاً وأفكاراً وعواطف بل ونشطوطاً وتخريفاً في بعض الأحيان ! وهو يجمع فوق ذلك كله المذهبين الواقعي (١) والابتداعي (٢) ويمزج بينهما بنسب معينة دقيقة . وعلى

العموم فان أسلوبه ثائر ضاحك ، لا يتقيد دائما بالجمال ولكنه يمثل الحياة نفسها أصدق تمثيل وأدقه . هذه النقطة الأخيرة ، وهى تمثيل أسلوب ديدرو للحياة تحتاج الى بعض الشرح .

ان أهم مافى الحياة ، هو ذلك النشاط ، الذى يبدو لأول وهلة لكل متتبع لحوادثها وصروفها . ولقد تنبه ديدرو لهذا النشاط فأعجب به ايما اعجاب ، وقال :

ان واجب الفنان الأول والأسمى أن يقذف بنفسه فى تيار هذا النشاط ، وأن يترك لعقله بعد ذلك حرية التعبير عنه . ولقد أظهر ديدرو هذه الخاصية فى كتابه الذى سبق وأشرنا اليه :

Le Neveu De rameau.

« صالونات » ديدرو : —

قبل أن نختم هذا المبحث التحليلي عن حياة ديدرو وفلسفته وأدبه ، يجب أن نقول كلمة عن « الصالونات » التى تردد عليها ديدرو وأثره فيها وتأثره بها .

ان ديدرو هنا « فى الصالون » أو الثوى ، هو ديدرو فى أى مكان آخر . طريقته واحدة وأسلوبه واحد ، لم يغير منها ولم يبدل . فهو كما سبق وشرحنا ، يتصيد فكرة جلية ويوسع فيها ويطنب فتصبح وكأنها فكرته : أنبثها عقله وأخذ يرعاها ويتعهدا حتى أينعت وآتت أكلها . ولديدرو شأن أى شأن أمام اللوحة المرسومة والتمثال المنحوت . فهذه الفنون الحسية تحدث فى نفسه تأثيرات قوية . . أنها تفجر فى دخیلته البراكين الفوارة ، والانعكاسات والتخيالات . وتبقى هكذا تفور فى رأسه وتمور حتى تجد منفذا الى فمه . فتخرج فى قوالب الكلمات النقدية المفسرة ا

ومع ذلك لا يجب أن يشتد الباحث فى القسوة على ديدرو لهياجه ونورته . بل يجب أن نلتمس له العذر . فهو لا يرى اللوحة أو التمثال بعينه ، بل بعواطفه الحادة النشطة ثم يأخذ فى شرح ما رأى . وهو قبل أن يبدأ فى الشرح ، بل وفى أثناء الشرح نفسه ، يضع أمام أعيننا اللوحة المرسومة بعد أن يضيف عليها ما يشاء من انعكاسات نفسه ، وافرازات عقله وهو قادر على أن يعطينا جوهر ما يرى من (الفن الحسى) فى خمسة أسطر أو أقل . هذا يدلنا بوضوح على مقدار عبقريته فى نقد فنى الرسم والنحت .

بقى أن نقول ان « صالونات » ديدرو قد أنتجت علاوة على النقد الفنى ، ما يمكن أن نسميه (صحافة الفن) . فديدرو ، بخوضه فى موضوعات الرسم ، ونقده لهذا الفن من ناحية الظلال والألوان ، ومن ناحية امتزاجهما ونسبة هذا الامتزاج . وكذلك بنقده لفن النحت بأسلوبه

الادبي الرفيع قد قرب بين الفن والادب ، بعد ان كان كل منها بعيدا عن الآخر كل البعد . فكان أهل الفن يعيشون في عالمهم الخاص ويموتون فيه، أما رجال الفكر والأدب فكانوا يجلسون أنفسهم في أبراجهم العاجية ولا يغادرونها أبدا . وكانت الصالونات تخضع لهذا النظام وترضخ له . فمدام « جيفرين » كانت تفتح أبواب صالونها في أيام خاصة للأدباء وفي أيام أخرى للفنانين .

فجاء ديدرو وقلب كل هذه الأوضاع . فقد أخذ يتردد على متاحف الرسم ، ويجادل أهل الفن ويجعل أفكاره وآراءه تحتك بنظرياتهم . وهكذا كان ديدرو أول من فتح نوافذ الأدب فأطلت على عالم الفن . ولقد تقوى هذا الاتصال بعد ذلك ، واشتدت الصلة بين الفن والأدب فساعد ذلك على قيام الثورة الرومانتيكية .

جورج لويس دى بوفنون

(١٧٨٨ - ١٧٠٧)

عناصر البحث

- أولا - لوحة حياته
- ثانيا - شخصية بوفون ، وقيمة انتاجه العلمى

لوحة حياته : -

ما أعجب أمور الحياة ، وما أغرب حوادثها !!

يولد العبقري العظيم ، فيجهل الناس أمره ، ولا يشعر بمولده أحد .
ويبقى هكذا نكرة لافرق بينه وبين غيره من الناس الى أن يأمر القدر .
حينئذ فقط تكشف العبقرية عن نفسها وتزيح الاستار الكثاف عن
جوهرها الخفى ، وكنهها المستور . فيسود مجدها . ويخلد ذكراها . وهنا
يبحث من يعنيههم أمر العبقريات فى ظروف تفتحها . ومواجهتها للحياة ،
وتأثرها بها . تم عن الرياح العاتية ، والأعاصير المجنونة المعربرة التى
واجهتها ، فاستطاعت الصمود أمامها ، والوقوف فى وجهها حتى تعبد
لنفسها الطريق الذى يوصلها الى المستقبل المجهول !

ولد جورج لويس لكلارك كونت دى بوفون عام ١٧٠٧ والجوساكن
والطبيعة هادئة نائمة ، والقدر فى شغل عن أمره ، فلم يقدم بعض الامارات
التى تدل الناس على قدوم رجل عظيم .

كان أبوه عضوا فى برلمان « بورجونى » . له صولات وجولات فى
ذلك الحرم المقدس الذى تحرق فيه البخور من أجل الحريات والحسرة
العام .

فنشأ ابنه على غرارہ يحب الحرية ويقدرها : يحب الحرية فى القول ،
والعمل ، والبحث . ومن المعروف أن حب الحرية ، والشغف بها يحبب الى
الانسان الأسفار والتنقل ويجعله ينفر من الاستقرار والجمود فى المكان !
ولهذا السبب نرى بوفون يؤمن ايمانا صحيحا بتلك الحكمة القائلة :
« الكون سفر لم يقرأ منه غير صفحته الاولى ذلك الذى لم ير الاوطنة
فليسافر اذن وليقلب صفحات ذلك السفر العظيم ، وليقرأ ماخط فيه من
اعاجيب وغرائب توجه بوفون الى انجلترا ، وتنقل فى أرجاء الجزيرة ،
وبذلك درس عن كثب حياة الانجليز ، وطابعهم الفكرى والعمل . لقد
كان ينظر الى مايمر أمامه من حياة وجماد ، بعين العالم المدقق . لا بعين
السائح الغنى الذى يمر أمامه شريط الحياة فلا يرى فيه الا الزخرف
واللمعان ، ثم غادر انجلترا ! وسافر فى صحبة أحد النبلاء الانجليز الى
بلد الفن والجمال . الى ايطاليا مهد الرسم والنحت والشعر . وهناك
ملا روحه الحسبة وقلبه المتعطش بصور الفن الخالد المتدفق من منبعه
الأصيل . ايطاليا اسم ساحر جذاب ، لبلاد ظلت مدى أجيال طويلة مقر
حضارة سامية . هناك فى ذلك البلد الساحر اختلط بوفون بأبناء
الطبيعة اختلط بأبناء ايطاليا الذين زودتهم الطبيعة الفتانة بالحب
والشعر والولع بصنوف الجمال .

شغف بوفون - أول ما شغف - بالرياضيات ، فاستهوته معضلاتها ،

وأحب فيها ذلك النظام الدقيق الذي يشيع في كل أبحاثها فأخذ يقرأ فيها المؤلفات الطويلة ، ويعالج بنفسه الكثير من فروعها ولكنه سرعان ما انصرف عنها أو كاد ، وانكب على العلوم الزراعية ، وعلم الطبيعة . وهكذا استمر بوفون يتعمق ويتبحر في دراسة هذه العلوم ومعالجة مسائلها ، وأخذ يضع فيها البحوث الطويلة القيمة ، حتى شعر أعضاء الأكاديمية العلمية بقوة هذه الأبحاث ، وسداد الآراء والأفكار التي تشيع فيها فضموه إلى أسرته ، وبذلك أصبح من علماء فرنسا المبرزين .

ولكن بوفون الطموح ، لم يقنع بما كسب من نجاح ، وما نال من شهرة وعظمة ، فاستمر في نضاله الفكري ، وثورته العلمية حتى فتحت أمامه أبواب الأكاديمية الفرنسية عام ١٧٥٣ . وهنا بلغ بوفون قمة مجده ، فبقى متربعا عليها إلى أن مات عام ١٧٨٨ .



شخصية بوفون ، وقيمة إنتاجه العلمي : -

إذا قارنا بين بوفون و « ديدرو » - وهما من أبرز شخصيات القرن الثامن عشر - وجدناهما على طرفي نقيض . فكل منهما يبعد عن الآخر تمام البعد ، ويناقضه تمام المناقضة . فحينما يقرأ المرء « رسائل » بوفون ، تملكه دسيسة طرية عاطفة بشوشة صحو أنصح هذا التعبير عاطفة لا يشوبها الاضطراب أو القلق . ومبعث هذه العاطفة الهادئة ، هو ما يصادف القارئ في هذه الرسائل من الانسجام التام ، والاتساق الذي لا يشوبه نشاز . وما تتضمنه من عواطف شائعة يحسها المرء في حياته اليومية ولكن لا يقدر على ترجمتها إلا المفكر الأريب . وكذلك يحس القارئ أنه قد قمص روح الكاتب . . تلك الروح التي تخضع للنظام وتقديسه . وتلك الخاصة الأخيرة - الخضوع للنظام وتقديسه - هي التي مكنت بوفون وساعدته في الوصول بأبحاثه إلى نهاية طيبة ، ولذلك نراه دائما يتمسك بأهدافها ويعتز بها ، بل يستعذب الخضوع لها .

لقد كان بوفون نبيلًا في تقاطيع وجهه ، نبيلًا في حركاته الحسية ، من التفاتات وإشارات . . نبيلًا في أسلوب كتابته ، وكذلك كان نبيلًا في شخصيته : فالنبالة قد انحدرت بحق في أعرافه وتسلطت على روحه وفكره . ولذلك نراه قد امتاز بالصلابة الحلقية وتقديس الشرف ، ومن ناحية أخرى نجد نصيبه من الاختيال والغرور قد تقلص وكاد يتلاشى . كانت نفسه مسرحًا لعواطفه النبيلة السامية فلم تستطع العواطف الضعيفة أو المنحطة أن تتسلل وتلعب أي دور على خشبة ذلك المسرح الفاضل .

كانت روحه العالية الرفيعة هي منبع عواطفه وأخلاقه ، تصبوغها في قوالبها الذهبية ، وتدمغها بصوت الضمير الحي . ولذلك كان بوفون لا يميل إلى التصنع بل يترك نفسه على سجيته لا تأتمر إلا بأوامر الضمير

الذى يملئ عليها أفعالها وأعمالها . فاذا قلنا الآن ان فلسفته ، وأخلاقه وسعادته ، تنبع من عواطفه ، ومن حياته الروحية العميقة ، وقواه العقلية الجبارة فلا يحق لأحد أن يعجب ويدهش . لقد كانت حياته سلسلة من الأعمال المنسجمة أحسن انسجام وأبرعه . . انسجام العالم الذى كرس حياته للعلم والفكر والانتاج .

ابتدأ نجم بوفون يظهر ويتألق فى سماء فرنسا عام ١٧٣٩ وذلك حينما وقع عليه اختيار الملك ليكون مديرا عاما لحداائق القصر ، فى تلك الحقة من حياته فرضت عليه طبيعة عمله الاتجاه نحو التاريخ الطبيعى ففتح نفسه للطبيعة، واتصل بها اتصالا مباشرا وأخذ يستوحىها أسرارها ويدرس مادتها الحائلة التى أتعبت عقول الفلاسفة منذ أن أتيح للإنسان أن يفكر . وأخرج للناس مؤلفه الأول عام ١٧٤٩ . ان أعداد الاجزاء الأخرى الباقية من هذا الكتاب سيكون شغله الشاغل وعمله الوحيد خلال التسعة والثلاثين سنة الباقية له فى الحياة . ولكن باريس بمباهجها وملاهيها ليست بالمكان المناسب لاتمام مثل هذا العمل الجبار والوصول به الى بر السلام .

فليتركها بوفون اذن ، بل ليهرب منها فهذا هو اللفظ الصحيح فى هذا المقام وليذهب الى « مونتبار » فهناك يستطيع أن يستيقظ فى الخامسة صباحا ، ويغلق على نفسه أبواب مكتبه . فى صومعته تلك ، كان بوفون يقضى الساعات الطوال فى العمل الفكرى المتواصل يقرأ ويملي ويكتب . كان يملئ أويكتب حتى الساعة التاسعة صباحا ثم يغادر الغرفة ليتناول إفطاره ، ويخلق ذقنه أو يشذب شعر رأسه . وفى التاسعة والنصف يعود اليها مرة ثانية فيبقى فيها حتى الثانية بعد الظهر ، فيتركها لتناول طعام الغذاء . وهكذا سارت حياته فى « مونتبار » حتى النهاية .

ان نقد انتاج بوفون لا يدخل فى دائرة بحثنا هذا فعملنا الآن هو تحليل شخصية الرجل ، ونحن اذ نتابع هذا التحليل يجب أن نصرف النظر ، ونضرب صفحا عن ذلك النقد اللاذع ، والهجو المر الذى وجه لانتاجه .

عقل بوفون هو عقل العالم المفكر . فهو يتمتع بتلك الخاصية اللازمة للتفكير العلمى وهى الدقة والامانة . فهو ينفر . . بل يبغض المجردات ، والأسباب الغائية ، والترتيب الجامد ويقول عنها : « انها ثلاث منابع لا تفرز الا الخطأ » . وهو اذ ينظر الى الطبيعة لا يرى التفكك والتجزء بل يرى الكليات والمواد غير القابلة للتجزئة . ان الطبيعة هى مرآته الوحيدة التى تنعكس على صفحتها الناصعة البراقة حقائق الكون ، والتى يرفض بوفون باصرار أن تشع له غير تلك الحقائق الكلية الصحيحة . لقد سبق وقلنا أنه دائم النظر الى الطبيعة ولكنه ينظر اليها عن قرب يلاحظ ، ويجرب بطرق دقيقة بل متناهية الدقة . ولذلك نجده اذا تكلم عن مظاهر الطبيعة تكلم عنها كما يجدها فى الطبيعة .

فيصفها لك في حالة اضطرابها الشديد ، وقدرتها المجنونة العاتية أو انفرادها وانعزالها . ولذلك تجد وصفه دقيقا كل الدقة يؤثر في نفسك ، ويأخذ عليك مشاعرك لأنه يطابق الواقع ، ويمثل ما وصف أحسن تمثيل .

ثم ينتقل بوفون الى الكلام على الظواهر الحيوانية ، فيقسمها الى مجموعات ويتكلم على كل مجموعة منها بتفصيل دقيق كما تعود في كل كتاباته . ونحن لا يعنينا في هذا المقام أن نتكلم بأسهاب عن منهجه في بحث وتحليل الظواهر الحيوانية . ولكننا مع ذلك سنشرح بإيجاز طريقة معالجته لمجموعة خاصة من المجاميع الحيوانية هي مجموعة «الحيوانات المفترسة والحيوانات المستأنسة» . يبتدىء بوفون بأن يقسم حيوانات المجموعة الواحدة الى وحدات ثم يتكلم على كل وحدة من هذه الوحدات فيبين أصلها ومميزاتها . الخ . . حتى اذا فرغ منها انتقل الى الوحدة التالية وهكذا . فمثلا نجده يقسم حيوانات المجموعة السابقة الى حيوانات « كبيرة » وحيوانات « صغيرة » ويدرس كل منها على حده .

يجب أن نشير هنا الى أن العلم في عصر بوفون - أي أوائل القرن الثامن عشر - كان لا يزال في دور طفولته عاطلا من صولته ، ومجردا من قوته . اذا عرفنا ذلك استطعنا أن نقدر عبقرية بوفون العلمية حينما نقرأ أبحاثه بعين العلم الحديث .

ان كل العناصر الوصفية للتاريخ الطبيعى قد ضايق بوفون أشد المضايقة لانه لم يكن يؤمن بالكثير منها وبالتالي لم يكن يطمئن اليها كمقدمات لأبحاثه . وقد ترتب على ذلك أن انصب اهتمامه على بعض الحيوانات دون بعض فمثلا نراه يهتم كثيرا بالحصان ، والنمر ، والاسد . ويهمل طائفة أخرى تدخل في نطاق الحيوانات السابق ذكرها أعني أنها من نفس الفصيلة : فصيلته ذوات الأربع . لانه كاد ييأس من دراساته لها مثل : الضبع ، والسنور ، والخنزير الذى يستوطن الدنيا الجديدة « أمريكا » والنمل وغيرها .

كان بوفون فيلسوفا قبل كل شيء آخر . ولذلك نراه لا يهتم بالافعال والظواهر الطبيعية على أنها مجرد أفعال أو ظواهر . بل نجد نسبة اهتمامه بها تقدر بنسبة ما تحمله في جوفها من معان ، فهو يعتقد أن هذه المعانى ، والاضواء التى تشفها الظواهر والافعال تقدم لنا شرحا عاما لقوانين الوجود .

ان بوفون لا يهدأ ولا يستقر الا اذا اعتقد بصحة الفروض التى تناول كيفية وجود العالم ، والتغيرات البطيئة المتتابعة التى يخضع لها عالم الجماد والحياة . ولذلك نراه ، يحشد حشدا زائرا من الظواهر والافعال ، ويحاول تكملة النقص فيها بأن يضع لها الفروض التى يطمئن اليها ويؤمن بها . ثم يقدم لنا صورة دقيقة واضحة . . صورة علمية عن تاريخ العالم . فقد أوقفنا على تلك الاضطرابات الجيولوجية العظيمة التى انتابت العالم في العصور المختلفة قديمها وحديثها ، وعن مقدار تقدم الحياة ، وكيفية ذلك التقدم . فرسم

لنا بريشته صورا رائعة عن الحياة البدائية المتواضعة ولوحات أخرى عن مقدار تقدم الإنسان !! أن بحثه هذا قد جوى الكثير من الاغلاط ، كما ينقصه الكثير من الشروح والتفاصيل . كما أنه غصر بالتأكيدات القاطعة الجازمة التي أن دلت على شيء فهي تدل على الجراءة المتناهية . . تلك التأكيدات التي قد تبعد العالم أحيانا عن الحقيقة . ولكن ذلك كله لا يمكن أن يحجب عن أعيننا قيمة الحقائق الكثيرة والآراء الجديدة العميقة التي تدل على خصوبة عقله وطيب خياله .

ولقد عارض بوفون الكثير من المذاهب التي كانت تعتنقها علوم الطبيعة ، والتاريخ الطبيعي مثل قانون « التغير » الذي كان ينادى به كل من يشتغل بالعلوم الطبيعية . ولكنه من ناحية أخرى ، أقر فروضا كثيرة بعد أن فحصها ، وسبرها بمخبر عقله . فنراه مثلا يتردد طويلا قبل أن يعترف بالفرض القائل « بحقيقة الانواع الحية » لقد اعتنق آراء بوفون وأفكاره ونظرياته الكثير من علماء فرنسا ، وغير فرنسا . ويكفيه فخرا أن جيوفري سانت هيلير ، ولامارك كانا من أتباعه وتلاميذه . فاذا عرفنا أن « لامارك » هو خليفة العالم الكبير « دارون » في فرنسا استطعنا أن نقدر عبقرية بوفون ، ونضعها في الذروة .

قلنا أن نظريات بوفون العميقة الواسعة - سواء أكانت مغلوبة أو صحيحة - قد أثرت فيمن أتى بعده من أفاض العلماء ، لأنهم قد اتخذوها مقدمة لأبحاثهم ، وبنوا على دعائمها نظرياتهم وفلسفتهم أما الاغلاط التي تورط فيها بوفون فترجع إلى تصرفه في الحقائق ، وبذلك كان حتما أن تنحرف النتائج التي يصل إليها عن الصواب . ولكن ذلك - لحسن الحظ - لم يلزمه في معظم أبحاثه فنحن نراه مثلا في نظريته التي أسماها « تتابع العصور الجيولوجية » قد بلغ القمة في دقة البحث ، ومثانة المنهج الذي سار عليه . لقد تمخض عقله عن هذه النظرية نتيجة لمشاهداته العينية في حالة الأرض الطبيعية . فهذه المشاهدات قد أوصلته إلى معرفة طبقات الأرض الداخلية ، معرفة علمية صحيحة .

ومن حسنات بوفون التي تذكر له دائما أنه لم يدخل في دائرة العلم البحث أي نفوذ خارجي غريب . فأولا نجده لا يحاول مطلقا أن يحشر النفوذ الديني في النطاق العلمي . « فالله لا يلعب أي دور في إنتاجه ، لأنه ليست له أية حاجة إلى ذلك » . وبوفون كذلك لا تعنيه سرمدية الأشياء بل يقذف بعينها بهذه المسألة العسيرة الحل . أما كل ما يهمه ويعنيه في هذا الصدد ، هو أن هناك قوة قد وهبت للمادة ، وأن تلك القوة هي التي تجعلها قادرة على التحول والتغير . هذه هي النقطة المهمة التي تهدف إليها أبحاث بوفون . وهو - نتيجة لذلك - ينكر ما يسمونه بالمعجزات ، والتوسط أو التدخل الإلهي ، ويؤكد - من ناحية أخرى - ظواهر القضاء والقدر ولكن هذا لا يعني أن بوفون كان من الملاحدة « اللا دينيين » لا ! أنه يمكن أن يوضع في منزلة « بين بين » . ولقد وقف بوفون هذا الموقف لأن الدين لم يكن من اختصاصه . لقد لاذ بأطراف الحياد ، فلم يدخل الدين - كما

سبق وأشرنا - في دائرة العلم ، ولم يخلق من علمه آلة لتضرب أو تثلم الدين أو الكنيسة . ولذلك نراه حينما يعرض علينا علما لا يتوخى إلا الحقيقة العلمية وحدها أما ما عدا ذلك فيهمله ، ويضرب به عرض الحائط . وهو نتيجة لهذا لم يهدف - في كل ما كتب - إلى البناء في ناحية ليهدم ويخرب في ناحية أخرى .

ان بوفون يطالب الطبيعة بأن تفتح أمامه وتتجرد من كل أسرارها ومعمياتها حتى يتمكن من رؤيتها على حقيقتها . وهو اذا سألها قال : ما أنت ؟ وكيف أنت ؟ ولم يقل : هل « يوجد » الله فيك أو لا يوجد ؟ ولذلك نقم عليه الفلاسفة ، ولم يسامحوه لانه عاش للعلم ، وللعلم فقط .

لم يكتب بوفون ما كتب ، لكي يستاصل شافة النظم الاجتماعية أو المعتقدات الأخلاقية . فهو قد مجد الانسان وآمن به على عكس الكثير من الفلاسفة والمفكرين الذين يحطون من قدره ، ويلصقونه بالحيوان ويلصقون الحيوانية به . لقد كون بوفون عنه فكرة عالية سامية وعزله في الطبيعة من بقية الاحياء ، ليجمعه السيد الأعلى على بقية الكائنات لانه هو الوحيد القابل للتقدم والرقى لذاتيته الخاصة وقدرته على التسامي ولانه مشبوب الحاجة دائما ، عريض الخيال واسع الآمال في تشكيل مواد الطبيعة وتنويعها ، واستخدامها لخدمته ومنفعته ، ونحن حين نستعرض الكائنات التي تسكن أرضنا نراه فيها ذا نفوذ : ففيه وحده يمكن أن تسكن العبقريه ، وتستطيع سكنها وهو لهذا كله العامل الوحيد الفعال لتقدم الانسانية . يقول بوفون أن الانسان هو الكائن الحي الوحيد الذي خلق ليخضع لمذاهب الاخلاق المختلفة ، وليجد السعادة في ذلك الامتحان المستمر الذي تقدمه له حياته الروحية !

لا يجد الباحث - في كلام بوفون السابق - ذلك « الرجوع الى الطبيعة » بالمعنى الذي يعط به الفلاسفة ، انه يعتقد كما يعتقدون بالتقدم والرقى ، ولكن طريقته في ذلك تختلف عنهم تمام الاختلاف . ويمكننا تحليل ذلك بسهولة ويسر اذا وضعنا نصب أعيننا عقل بوفون : ذلك العقل العلمي الذي تعود على دراسة العصور الجيولوجية . ومميزاتها وخواصها . ذلك العقل الذي يؤمن بالتغير الهادى ، والانقلاب البطيء في قوانين العالم لانه رأى ذلك ، وآمن به في دراساته الجيولوجية ، وهكذا تخلص من تلك الحمى القاسية العريده ، وتعود على الصبر والاناه ونبد جانبا الثورات العقلية والغرور الطفولي الساذج ، والآمال السهلة ، نبذ كل تلك العناصر الضارة لعقل العالم ، والتي كانت متفشية في عقول معاصريه ولهذا نراه لا يعتقد بالانقلابات الفجائية التي تجدد حياة العالم . وبأن لمسة اليد في مقدورها أن تسطر تاريخا جديدا أو تمنح السعادة الكاملة !! . أى انه لا يؤمن بالطفرة وما تجره وراءها من نتائج . أما الصورة الصحيحة التي يؤمن بها ويقدمها لنا على أنها هي السبيل الوحيد المؤكد لتقدم الانسانية ورفيها ، فهي على تقيض الصورة الاولى أى انه يعتقد انه لا تقدم للانسانية ، ولا رقى الا بعد حدوث تغيرات بطيئة تدريجية غير

مشعورة كما حدث تماما في الحركات الجيولوجية التي تعاقبت على العصور الجغرافية .

لقد قدم بوفون خدمات جليلة الشأن ، عظيمة القيمة للعلم والادب . أما خدماته للعلم فتتلخص فيما يلي : حرر بوفون العلم من العناصر الخارجية الغريبة . فنراه قد خلصه ، وفك أسره ، من أغلال الدين وأعاصيره ، ولكنه في نفس الوقت صدعته التيارات «اللا دينية» و « اللا أخلاقية » . تلك التيارات التي شغفت الفلاسفة ، وملكّت عليهم مشاعرهم ، فجعلوها شغلهم الشاغل ، وأطنبوا فيها القول وأسهبوا والتي تسربت من دائرتهم الى دائرة العلم ، فامتزجت بجدوله العظيم وجرفت أمامها عقول العلماء المعاصرين لبوفون .

أما خدمته الكبرى للادب : فهي فتحه ميدانا جديدا ، واستكشافه أرضا خصبة عذراء تصلح لفأس الاديب ومِعول الفنان . لقد قدم للادب مادة خام ، غنية بعناصرها ، ووضعها أمام عين الاديب ، وتركها له ليشكلها في قوالب أدبه وفنه ، ويأخذ منها ما يرتضيه ذوقه ومزاجه . . قدم للادب « التاريخ الطبيعي » فتقبله شاكرا لانه كان في أمس الحاجة اليه من قديم الزمان .

ان كتابات بوفون في العلم ، قد حبيته الى الكثيرين من معاصريه . فنحن اذا سرنا معه في دراساته وأبحاثه ابتعدنا كل البعد عن « علم الطبيعة الفكه » الذي عالجه وشغف به « فونتينل » والذي أصبح في أيامه وأيام تلاميذه من بعده يكون جزءا من تلهبات الحياة الدنيوية . لم يكن بوفون يكتب علما فكها كفونتينل بل كان يكتب علما « بحثا » ، ولكنه رغم ذلك استطاع أن يصل الى قلب القارئ في نفس اللحظة التي يصل فيها الى عقله . وذلك لانه كان يتمتع بموهبة الممتاز القادر على اخضاع الاسلوب للفكرة مهما سمت وعظمت . ولكن ذلك لا يعني أن بوفون قد اصطنع الاوصاف الفاخرة ، والكلمات الفخمة الطنانة ، والعبارات المنمقة اللينة التي يعتمد اليها الاديب الفنان لا ! فاسلوب هذا شأنه قد يخفي الحقيقة العلمية تحت أغلفة أدبية وقوالب فنية وأفكار أخلاقية ، فيصعب على القارئ تصيدها من تحت هذا الجبل الشامخ .

لم تكن الزخرفة والتنميق اذن من مميزات اسلوب بوفون . واذا وجدت في مقالات له أو كتب فمرجعها الى أعوانه في التأليف مثل « جينو دي مونتيار » أو الاب بكسون ، فالاول كان يتفنن في تنميق الاسلوب وزخرفته أما الثاني فكان يضفي الاوصاف الخسلاية على الحيوانات كالبعج وغيره . ولذلك جاءت بعض الفصول في أبحاثهم المشتركة عن الحيوانات ، تشبه من عدة وجوه « أساطير لافونتين » وهكذا لا يستطيع القارئ الباحث أن يجد بوفون في مثل هذه الأبحاث .

ولكنه اذا أراد أن يقابله وجها لوجه فليبحث عنه في « نظريته الأرض » و « نظرية الطبيعة » . فهنا نجده على بساطته . لان الفكرة التي يعالجها عميقة كبيرة تكفي خياله وتشبعه . ولهذا فهو لا يحتاج

الى أى عنصر خارجى لتنشيط هذا الخيال وتحريكه . ودفعه الى العمل والانتاج . وكذلك يسيل أسلوبه المعبر عن هذه الفكرة أسلوبا بسيطا هادئا منسجما لا يحتاج الى الزخرف والتنميق أو التصنع والتعمد . هو يقدم لنا اذن ، بأسلوبه هذا ، ما يمكن ان نسميه « بالفصاحة العلمية » المشرقة ، تلك الفصاحة التى تزيد من « حياة » الفكرة وتقويها ، وهذا هو نفس الاسلوب الذى جرى عليه بوفون فى مقالته التى قدمها للاكاديمية الفرنسية ، فناقشتها ، وقبلته عضوا من أعضائها الخالدين .

كان اميل فالجيه المؤرخ الفرنسى الشهير محقا حينما قال : « ان بوفون وروسو من أشعر شعراء العصر . . » أما جوستاف لانسون فقد وضع بوفون فى مرتبة أعلى ، واسمى من مرتبة روسو . بوفون قد عالج لونا من الشعر لم يعالجه روسو ولم يلتفت اليه وهو « الشعر العفيف الشريف » . « وعصور الطبيعة » لها نفس الجمال والروعة التى تتمثل فى الكتاب الخامس المسمى « De natura rerum. » لقد رسم بعض العلماء لوحات للطبيعة ولكن هذه اللوحات كانت لا تمثل الا بعض مظاهرها ولذلك جاءت لوحاتها محدودة ناقصة تتأرجح فى الفضاء اللانهائى ، والزمان السرمدى . وذلك لانهم تأثروا بأرواحهم وأفكارهم وهو يرسمون هذه الصور ، فانعكست على اللوحة وامتزجت بالرسم ! أما بوفون ، فهو وحده الذى أعطى للطبيعة حقها كاملا غير منقوص . وذلك بأن أعطاها كل عمقها ، ودرسها بعقله الفلسفى البعيد عن العواطف والمؤثرات الخارجية . وهذا يفسر لنا سهولة تقبل القارئ للمادة التى يقدمها له بوفون . فهذا الرجل الذى رأى بواسطة قوة غريبة قاهرة استمدتها من خياله ، التغيرات التى انتابت العالم قديما تمكن — بطريقة غريبة كذلك — ان يصب أفكاره هذه فى أذهان أهل عصره .

لقد خلق بوفون من العناصر التى تقيد المجتمع ، ومن الدوق المعاصر مقياسه الذى يقيس به كل ما هو خير وجميل . ولذلك يجهر قائلا : « ان كل ما لا يمكن استخدامه لنفع الانسان فهو ناقص ! » ولذلك أيضا نراه لا يرى الا القباحة حينما تتمثل الطبيعة فى حالتها البدائية البسيطة ، الساذجة المستوحشة .

وهكذا ، اصبح من الطبيعى اذن ان يفضل بوفون الحقل على الاجمة . والحديقة على الغابة . وبمعنى آخر يفضل النظام . . وربما كان من حسن طالعه ان تأصلت فى نفسه شهوة النظام هذه ، والا فهل كان من الممكن ان يتذوقه أهل عصره ؟ !!

سَانَتِ بَف

بِالْمُتَوَفَّى عَامَ ١٨٦٩ هـ

عناصر البحث

سأنت بف : الشاعر

- - أشعار جوزيف ديورم
- - التعزيات
- - أفكار اغسطس

قدم لنا مؤرخو الادب الفرنسى ، لوحة رائعة جذابة ، تمثل «لامرتين» شاعر الحب والجمال وهو يقرا «البحيرة» لجماعة من قدماء المهاجرين والرحاله الذين يزينون رؤوسهم بالشعور المستعارة ، وأقدامهم بالجوارب الحريرية الثمينة . وظهر غى اللوحة كذلك جماعة أخرى تتكون من رجال قد وخط الشيب رؤوسهم ولحاهم وبدأت على صفحه وجوههم تعاريج الزمان وتضاريس العمر الطويل ، وكانوا يرتدون أثوابا قاتمة وقورة تناسب مظهرهم وتتلاءم مع سنهم !

وكانت هذه اللوحة مؤثرة بديعة ، ولكنها لا تخلو من التباين والتناقض . ولا يصح لنا الآن أن نضيف أن السامعين قد تأثروا ، وتحركت نفوسهم من عذوبة الشعر أو سحر الطرب . والا أصبحت هذه اللوحة قليلة التصديق . فلقد وجد هؤلاء أن «فلوريان» و «بارنى» سزان هذا الشاعر الشاب . ولقد انفضوا من حوله ، وذهبوا لشأنهم وهم يقولون - من غير شك - أن شعره سيسلك نفس المسلك الذى سلكته قصة «آتالا» (١) وغيرها . وهذه هى طبيعة الناس فى كل مكان . فهم لا يحبون ، ولا يطالعون الا للشعراء الذين بزغت شمسهم فى أيام شبابهم أو طفولتهم ، أما الشاعر الناشئ فلتقرأه الاجيال القادمة اذا رغبت ! . . .

ولكن حينما ظهرت «التأملات» عام ١٨٢٠ ، أعجب بها كل شاب و . . . بكى ، ولم يجد أى كتاب آخر ، مثل ما وجد هذا الكتاب . لقد أغرق الرجال فى خضم لذيذ ، أما النساء فقد أحبين كلهن مؤلفه الشاعر الشاب . ثم تحطمت نطاسم هذا السحر ، وانطلقت اللسنة ، وثار بحر الشعر وأخذت أمواجه تتلاطم فى قوة وعنف ، وتنتشر وتتدفق فى كل مكان فظهرت «الاشعار القديمة والحديثة» لالفريد دى فينى ، ثم قصائد وأغانى «فيكتور هيجو» وكثير من الشعر الجيد الحديث لغيرهما من شعراء العصر .

وفى وسط هذا التفتح العجيب للعبقريات الشعرية رأى هذا القرن بين جماعة المعجبين شابا شاعرا كله أمل فى المستقبل . لقد كان متحمسا وثابط الهمه فى وقت واحد ! لقد أصابه اليأس القاتل ، ولم يتصور أن فى استطاعته أن يرفع صوته ، ويطلق حنجرتة ، فيسمع الناس انشاده بين تلك الاصوات الرخيمة الكبيرة . . . السعيدة . وكان هذا هو الوقت الذى جعله يتأوه بآهات الزمن القديم :

لن نذهب بعد ذلك الى الغابة ،

فأشجار الغار قد قطعت . . !

(١) قصه بديعة لمؤلفها «فواسوارينيه دى شاتوبريان» .

وفى الواقع كان من الصعب على شاعر ناشئ جديد فى عام ١٨٢٦ ، أن يدخل تلك الحلبة الكبيرة التى تصول فيها وتجول عبقریات شعرية فذة • ويجد لنفسه طريقا يوصله الى قمة المجد والشهرة • لان كل الطرق العادية - وهى الطرق الوحيدة التى توصل المرء الى المجد والشهرة - كانت قد ازدحمت بتلامذة لامارنين وفيكتور هيجو •

وكل الموضوعات التى كانت تملأ فى ذلك الوقت أدمغة الناس وعقولهم مثل : نابوليون ، وسقوط الملكيات ، والحب الحزين ، والتدين العاطفى •• كل تلك المواصفات طرقها الشعراء ، وأجهدوا أرضها بمعاول أفكارهم وفؤوس أذواقهم •

ولكن كان يوجد فى وسط هذا الزحام فجوة فارغة لا يستطيع أن يملأها الا الشاعر المرفف الحس ، والقوى الغريزة ، المتفتح القلب ، الذى يصرف جواهر الاشياء وزبدتها ويستطيع أن يعالجها بدقة ولطف شاعر له نصيب « هوراس » وحظ لا فونتين ، أو ربما أكثر من ذلك قليلا • ولكن هذا الشاعر اذا جاء ، فلن تكون أمامه فرصة كبيرة تساعد على الظهور ، وقطع طريقه الى الامام •

من المؤكد أن الشعب الفرنسى يحب الشعر ويمجد الشعراء ولكنه يحبه على طريقته الخاصة • فهو يتمسك بذلك اللون الفصيح الذى تشيع فيه الفخامة الرنانة المزركشة القزحية الالوان فمنذ الثورة الفرنسية أصبح الفرنسى يحب المغالة والتفخيم الى أقصى حد • فهو لا يهتز ولا يطرب من العواطف العميقة بل من الكلمات الرنانة المجلجلة ، وذلك لان شاعرية الاشياء تنقصه وتغيب عن ذوقه • هو يحب اللون الدرامى من الادب •• يحب ذلك اللون من الشعر الذى يحفظ ويلقى من أعلى المسرح • أما باقى ألوان الشعر فمهضومة الحق مسلوبة الروعة • وأخيرا يمكننا أن نشبه الفرنسى - من ناحية حبه للشعر - بالهواة من الموسيقيين الذين لا يفهمون غير الموسيقى الحماسية الحربية ، أى أنه فى كل المناسبات العملية والفنية والادبية الخ •• يلزمه « المارسييز » (١) •

ومن وسط هذا الجيل : ابن بونابرت والثورة الفرنسية •• ذلك الجيل الحر والملكى ، والمسيحي المؤمن بمسيحيته ، والمتشكك المضطرب وديانته • ذلك الجيل الذى من أهم خواصه التفاؤل والتطلع الى المستقبل بروح الثقة الوطيدة، نبع فى مدينة باريس فتى فى ربيع العمر واسع المعرفة ، عريض الآفاق يتوجع ويتألم من مرض خطير هو شدة الخجل، ولكنه كان رغم ذلك خلابة نافذ البصيرة ، مهتاجا تأثر الوجدان يتمتع بذكاء مفرط ، تخنق طبيعة الفهم فيه كل الطبائع الاخرى • هو أشقر ، قبيح الوجه ، متنافر المعارف ، شديد البنية قويها ، سوداوى المزاج غريزى الطباع ، متشكك يؤلمه هذا التشكك ويعذبه وهو حينما تدرثر برداء الطلبة ، كان رجلا قليل العقيدة فقير الايمان ولكن كان له فى بعض الاحايين الخاصة ، لفتات حنونة حية نحو الدين ، ودفعات قوية شديدة نحو الحياة الباطنية النفسية • وقد كان يحب الادب قبل كل شىء •

هذا هو سانت بف وهو كما نرى ليس بالشخصية البسيطة التحليل،
السهلة التشريح . لان شخصيته هذه لم تكن متماسكة في عناصرها او
متسائدة .

ولقد انضم عام ١٨٢٦ الى أسرة تحرير الجريدة الحرة التي تسمى
« الجلوب » ، وذلك بمساعدة استاذة القديم لعلم المعاني والبيان مسيو
« ديبوا » . ولقد استفاد الكثير وهو في مضمار هؤلاء الاساتذة العلماء .
ولكن عقله امتاز على عقولهم جميعا بمرونه ولينه ، وبالعقود الشديدة
فيما يفرزه من أفكار وآراء وبجوهره الادبي الرائق الصافي ، وذوقه
الحالم الذي ينجذب دائما الى الالم والحزن . وهذا الحزن شيء أزلي قديم ،
يمارز دائما صبح حياة الشاعر او الشعراء جميعا ، وفي حياتهم تلك ،
توجد فترة معينة تتكون في خلالها عناصر أزمة لا تخلص من الكوارث
النفسية الاليمه . لقد كان جوهر هذا القرن الذي عاصره سانت بف
بئساً يائساً . ولكنه كان يتحلى باطار جذاب خلاب . . . كان يتحلى
بالآلاف الالوان القزحية التي تشعها الاحلام الشعاعية . فأي شيء أحلى
وأمتع من كراهية الحياة وبغضها ؟ وما ضر المرء أن يقتبس - وهو في
العشرين من عمره - مذاهب بعض الكتب الجميلة مثل « فرتر » (١) او
« رينيه » ؟ لقد عرف الشعراء أن يزخرفوا أمزجتهم التي تميل قليلا الى
الهوس والجنون ، ويجعلوها جميلة مقبولة ، وغير مضره لغيرهم .

لقد كان سانت بف يشعر باخلاص هذا الشعور نفسه ولذلك نراه
يبحث في ظروف مولده البعيدة عن سبب هذه الحالة النفسية فيقول :

« لقد فقدت والدني أبي في السنة الاولى من زواجها وكانت تحملني
آنذاك في بطنها . . . وهكذا كان حملها لي في فترة الحداد والحزن . وهكذا
ارتويت بل استحممت بالحزن وانا لا أزال نطفة في الغشاء الجنيني . وأنا
الآن أرجع ذلك اللون من الهوس الذي أصابني في أيام شبابي الاول ،
وكذلك استعدادي الطبيعي للحزن الى حزن والدتي وحدادها . . . »

هكذا شرح سانت بف حالته النفسية هذه ، وأبان لنا منبعها ،
بكتابه هذا الذي بعثه الى صديقه مسيو دي « فاييبر » في ٢٥ يونيو
عام ١٨٦٢ .

ولكن كيف يمكننا أن نكشف ونضئ هذه الاسرار الخفية ؟ لقد
طعمت أم أخرى نفس سانت بف بهذا المرض المنتشر . . «مرض العصر» .
ولكن من تكون هذه الأم الاخرى ؟ هي اثورة الفرنسية . تلك الثورة التي
أوحت الى أبنائها هذا الحزن العظيم ، والرغبة في الجمال العام اللانهائي
هو مرض الشهية التي لا يمكن ارواء عطشها أو سد حاجتها أو اشباع
نهمها . لقد قلبت هذه الثورة كل الحدود التي تحدد وتحوط بمنطقة
« الممكن » ، وأصبح القلق والتشكك وما يترتب عليهما من آلام قاسية
واحزان عميقة من الاشياء الشائعة غير المنتهية .

ولقد شرح « تايين » هذه الظاهرة بوضوح في كتابه « تاريخ الادب
الانجليزي » فهو يقول في الجزء الثالث من هذا الكتاب :

(١) قصة «الام فرتر» الخالدة للشاعر الالماني الفيلسوف جوته .

« ... وهكذا ظهر مرض العصر ... قلق فرتر وفاوست ، ذلك القلق الذى يشبه تماما القلق القديم الذى كان يملك الرجل ويشير من مئات السنين . أريد أن أقول الملل من الحاضر والرغبة الملحة الشديدة فى عالم من الجمال السامى والسعادة المثالية والميل المؤلم الذى يهدف نحو اللانهاى .

وهكذا كان الرجل يتألم ويقاسى من الشك ولكنه مع ذلك يشك . ويحاول أن يمسك من جديد بأهداب اعتقاداته التى كانت تذوب بين يديه . . هذه هى طبيعة الظروف التى أحاطت سانت بف الصحنى ، الواسع الأفق فى العلم والفلسفة والفن حينما ألف شعره الذى طبعه للقراء عام ١٨٢٨ .

لقد كانت هذه المقطوعات الشعرية عبارة عن لون خاص من الشعر الحزين الهادى . ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، لكى يتمشى مع حالة الشاعر النفسية . ولقد مزج شعره الحزين هذا ببعض المقطوعات الأخرى التى تتجلى فيها الصناعة الشعرية بكل عناصرها ، وذلك حينما سمح للشاعر الشاب بالانضمام الى أسرة « نادى الشعراء » .

وكانت طريقته - لكى يعطى أشعاره هذا اللون المعقول والسحر المؤثر - هى طريقة التصنع التى تلجأ اليها « مريميه » فى مسرحيته « كلارا جازيل » . ولقد ابتكر سانت بف طريقة مبتكرة طريفة لتقديم كتابه هذا الى جمهور القراء . فقد قال أن هذا الكتاب هو من تراث شاعر شاب توفى على أثر اضمحلال قواه الجسمية من جراء مرض خبيث واسمى المؤلف « جوزيف ديلورم » . ولكى يصيب هذه الخرافة بصبغة الحقيقة قدم المؤلف الحقيقى . كتابه هذا بمقدمة طويلة عن حياة المؤلف المزعوم وكانت الفرصة مواتية وجميلة ، للاعتراف صراحة وبوضوح تام عما يجيش بخاطره تحت هذا الاسم المستعار . وذلك لكى يعرض على العالم أجمع الأفكار الشائنة ، والعواطف المتفجرة التى تفور وتغلى فى رأس أحد العصامين الفتيان ... ذلك الذى كان يرى ويفهم كل شيء ... ذلك الذى لم يكن شيئاً فى الواقع ، والذى كان يعيش على خمسة وعشرين سنتيماً فى اليوم !

والآن يحق لنا أن نتساءل : هل كان جوزيف ديلورم معداً أو مجهزاً بكل العناصر النفسية التى شاعت فى هذا العصر ؟ أى هل كان هو الآخر يعانى ذلك المرض المنتشر ... « مرض العصر » ؟ قبل أن نجيب يجب أن نميز فى شخصية جوزيف ديلورم هذا ، العناصر الشائعة والعناصر المنقولة وما يدخل فى تركيب الطبيعة الجوهرية فى أعماق سانت بف نفسه .

كان جوزيف ديلورم يشبه فى كثير من الوجوه أفراد عائلته الأدباء - يشبه فرتر ، ورينيه و « أدولف » (١) وخاصة « أوبرمان » .

(١) بطل قصة بنجامان كونستان العظيمة .

لقد كانت كل حياته تقتفى أثر «سينا نكور» وتنحصر في إطار تلك الكلمات التي قالها « أنه لم يشعر بتعاسة صارخة ، ولكنه حينما دخل الحياة وجد نفسه يسير في طريق طويل يتبع الملل والاحزان والبغضاء . ولكنه بقي وعاش فيه ، وتقدمت به السنون قبل الأوان ، وانطفأ فيه سراج حياته ... »

ولكن الجديد في جوزيف هو أنه كان بورجوازيا حقا . فقد خلا تماما من عنصر السيادة ، هو بورجوازي في حياته وفي عقله ، وسوف يكون شعره بورجوازيا مثله ، وسيخصص في رسم لوحة الحياة البورجوازية !

ولوحة حياة جوزيف قد رسمت بريشة فنان بارع . ولكن انقارى اليوم ، لا يسعه الا الابتسام من ذلك السجل الذي دونت فيه حوادث يؤسه وتعاسته ، فهذه الحوادث وليدة الخيال يكسوها بطابعه ويلونها بألوانه الزاهية البراقة ، مثل شخصية صاحبها المخلوقة المبتدعة . فحياة الشخص الحقيقي - أعني الشخص الموجود حقا - تقل عناصر الاضطراب فيها ، ويتلاشى منها العنصر الأسطوري ... أى تكون حياته بعيدة نوعا ما ، أو بعيدة تماما عن ذلك التعقيد الذي نشاهده في حياة هذا الشاعر اشباب المزعوم ، هو طالب طب تسيل حياته في إطار إحدى المستشفيات الذي يكون هو فيها طالبا داخليا . تحميه وتعطف عليه جماعة من كبار العلماء . ولكن سرعان ما يصاب « بمرض العصر » . فيبدو لأنظارنا قليل الرزانة فقير الأتزان .

« ... لقد قبل بعد جهد وظيفة بسيطة وأخذ يقوم بواجباتها ، ثم نقل - بفضل مساعدة العلماء - الى وظيفة حرة ، فلم يتأخر في ادخال عناصر العناية بعمله وحسن الانتباه له حتى يكون خالي الغرض فيؤدي واجبه على خير وجه . ولكنه عد محميا .. ولذلك ثارت شخصيته النبيلة على هذا الوضع الأخير ... وكانت هذه الشهور الثلاثة أو الأربعة هي سبب هلاكه .

ان حالة هذا « الفرتر » الجديد هي حالة ملحوظة « ولكن هل اخترعها سانت بف لجرد التسلية ؟ من المؤكد أن لا . فمنذ أيام جان جاك روسو الكبير المسكين أخذت بدعة الجور والظلم والاضطهاد تخرّب وتهدم أدمغة العامة . ولهذا فهذه الخطوط من حياة جوزيف ديلورم قد أحسن تخيرها ، حتى يمكننا أن نقول أنها تلصقه بجان جاك .

لقد أحب ، ولكن على طريقته الخاصة ، وهي طريقة ليست بالبسيطة السهلة ، ولا بالعملية الشائعة . لقد كان محبوبا : تشفع له الأم ، وتنتظره الفتاه الشباب وصدورها يعلو ويهبط ، وفمها يقذف بالتنهدات الحارة . ولكن طبيعة عصره جعلته لم يرض عن هذه السعادة الجافة الخشنة . فكتّم هذا الحب وسكت . وبقي منفردا وحيدا يخاطب نفسه صائحا : « أنا كالدلالة المعبرة انثى ترتسم على الجبهة ! » .

ولم يبد على عمله هذا أى شيء من الأفراط الزائد عن الحد ولكن أحد المعاصرين لجوزيف ديلورم ، هو رجل رزين متزن ، قص - كما يقول - أناتول فرانس على جماعة من أصحابه بعض الحوادث القرامية التي

نخالت شباب جوزيف . قال ذلك الرجل ببساطة أن ديلورم كان ينتزه دائما تحت نافذة حبيبته الجميلة ، وفي يده جمجمة ميت وأضاف أنه حينما كانت النافذة يتأخر فتحها ، كان جوزيف يضع هذه الجمجمة في قاع حقيبته ولا يخرجها أبدا بعد ذلك الا في الظرف المناسب ! ولقد حدث أن استقبل سانت بف نفسه في ليلة من الليالي وفي زمن هذه القصة الغريبة ، سيدة شابة ذات صيت واسع وشهرة عريضة . أعطته هذه السيدة رأس ميت للتشريح والدراسة . وكانت هذه الجمجمة يمكن أن تفتح بواسطة غطاء في أعلاها يستند على محور متحرك . وكانت السيدة قد وضعت بداخلها خصلة من شعرها الجميل ، ورقة من الورق كتب عليها : « يجب أن ترجع هذا الى . . »

ولكى ننتقل من حياة جوزيف ديلورم الى شعره ، نقول أن ذكرى هذه الرأس أو الجمجمة قد ورد في رسالة مرسلة من سانت بف الى « فونتيني » . لقد وصف الشاعر في هذه الرسالة حجرة حسنة التنسيق تقع في دير مخرب مهدم . ويقول أنه قد وصل الى هذه الحجرة بواسطة سلم حلزوني ، فوجد الغرفة مضاءة . . يدخل اليها النور من نافذة تقع في إحدى زوايا الحجرة ورأى في الحجرة أحد المقاعد القديمة المستطيلة ، ومنضدة صغيرة صنعت من خشب التنوب .

أوراق ، وملابس ، ولوحة قد ضاعت ملامحها .

كانت فيما مضى عظمة القيمة

وهناك فرشاة ، ناي ، وخنجر على نفس المنضدة . .

وقيثارة مشاولة الأوتار تسكن في هيكل عظمي . . .

ان كل الدلالات والامارات تجعلنا نلصق شخصية جوزيف ديلورم ببورجوازي عام ١٨٢٨ . لقد قدمه لنا سانت بف على أنه من الاحرار المخلصين ، ولكنه من المعتدلين كذلك ، تماما مثل « أجست باريبيه » كما ظهر فيما بعد بقليل في « السباعيات » . لقد عاش جوزيف طويلا ورأى الكثير من الشخصيات الادبية وهي تعمل ولذلك لمسامات كان على شيء من الثقة وعدم الشك ! هذه الصورة تعطينا بوضوح طبيعة هذه البورجوازية ، التي أخذت تهيب نفسها للظهور من زمن قصير .

أما عن المرض الذي مات به جوزيف ديلورم فانه لم يمس سانت بف الذي كان يشبه في كثير من الوجوه جوزيف ديلورم . ولكن جوزيف ديلورم يختلف قليلا عن هذه الشخصية المبتدعة . فهو يعرف تماما ما يجب أخذه من الأشياء ، وما يجب تركه ونبذه . والذي - بعد أن وزن وحلل وقدر - رضى بسرور أن يعيش ، ويعيش طويلا .

كان هذا الشبح البورجوازي يشيع في الحياة الادبية فيعجب به البعض ويحبه ، ويسخر منه البعض الآخر ويفضه ولذلك نرى انشقاقا يحدث بين أفراد أسرة « الجلوب » فمسيو جويزو يصفه بقوله « فرتر البعقوبي المخاطر » . أما مدام « دي بروجلي فتقول هذا الذي لا خلاق

له « . وقال آخر - وهو صاحب حس مرهف - وهو يصيح ويتنهد :
« لو كنت قد عرفتَه لقدمت اليه عزائي » .

أما أشعار جوزيف ديورم ، فهي تمتزج امتزاجا تاما بالعاطفة
والإلهام ، وتختلف وتتغير في طريقة صياغتها . هي أشعار عادية ، وهذا
هو طابع الجودة فيها . لقد كان سانت بف مجددا في بعض النواحي
ولكن الذى يهمه ويعنيه حقا هو الطبيعة الخلوية الطليقة ثم انثناء
والشكوى لقد كانت طبيعته وغريزته تدفعانه قدر الممكن بعيدا عن
الموضوعات الخاصة المحدودة . فمثلا نراه حينما يتغنى بإيطاليا ،
بخاطب قروية ساذجة جميلة قائلا :

كيف لى بمن يحمل الى الذكريات القديمة ...
وذلك الفخار الأبدى الذى لا اعتقد فيه !
ولكن قصى على طويلا أيتها (النابولية) الشابه
الأسماء الموسيقية لأشجار هذه القابله
وسمى لى الربوات مع كل عين ماء ...

وهو يريد أن يعرف آلاف التفاصيل الأخرى ، وآلاف الأشياء
الصغيرة ، التى كل واحد منها تعنى شيئا ، ولكن بإضافتها بعضها الى
بعض ترسم أمام أعيننا الحياة كلها ! هو يريد أن يجعل قصائده وأغانيه
حنونه لينة ، ولذلك نراه يخضعها لسلطان القلب والعاطفة . وذلك
لأن القصائد والأغاني ، كانت قبل ذلك ، تشيع فيها النغمة الوطنية
الملوكية .. كانت دائما مشبعة بالحماسة الشعبية المتفجرة كماء
انفجورات ، ولذلك نراه يقسمول لداود المثال : « متى ينطفىء نار
موقدك ؟ »

أما فى أشعاره الحزينة فهو يشعر بالراحة والهدوء ، وينتقل بين
الأفكار والتفاصيل فى سهولة ويسر لم يقدر عليها لامارتين أو الفريد
دي فينى أو هيجو . ويرجع ذلك الى أن سانت بف كان قد اختار
أساتذته ونماذجه فى الفن والتسعر . فقد قيل أن « فيلاريت شاسل »
- المفرق حتى أذنيه فى أدب الشمال - قد دله على كل هؤلاء الشعراء
الأنجليز العباقرة ، التى تتكون عبقريتهم من عنصر ممتاز يميزهم عن
غيرهم هو عنصر البساطة النادرة . عرفهم سانت بف اذن وأحبهم
جميعا ونسج على منوال أكثرهم مثل شيلي ، و « وويردزويرث » وكذلك
« كراب » ، « وكوبر » . وهم هؤلاء الشعراء أصحاب الفكر الحر النقى
الطبيعى ، الذين خلقوا شعرا « للرجل الجديد » ، شعرا مطبوعا
بالعواطف اللينة الحديثة . وسانت بف لم ينكر أو يجحد مقدار تأثيره
بهم . فنراه يكتب عام ١٨٦١ الى الأب كونستانتين روسل يقول :
« للأنجليز تراث أدبى شعري يفوق تراثنا . فهو صحيح سليم ودسم
غنى ... وأنا لم أصبح شاعرا الا لأنى من النهرات الصغيرة التى تنبع
من هذه البحيرات الشعرية الجميلة الهادئة .. » لقد كان نهرا صغيرا

كما يقول . ولكنه كذلك - في بعض الأحيان - من الانهار الناضجة
التي تبعث دمدمة رائعة محيرة ... دمدمة لا يمكن أن ينساها المرء
أبدا .

والآن نقدم للقارئ بعض نماذج من شعره الذي ينبع من البحيرة
الانجليزية الهادئة . ولكننا ننصح له أن يرجع الى الأصل ليقرأ
المقطوعات كاملة . انظر الى هذا الوصف الحبيب :

أرى شجرة الكرم تنساب على متقفي الاردوازي .

..

ومن نفس هذا المنبع الطبيعي ، منبع البحيرة الجميلة ، تبرز لنا
هذه الصورة الطبيعية الرمزية :

لقد غسلت الشجرة أرض الأزهار التي لم تكد تفتح

..

وايضا هذا التشبيه الغريب غير المنتظر ، الذي يفتح فجأة في
جوف اللوحة المرسومة بريشة الشاعر عالما مثاليا جذابا وهو خاص
ببأمرأة جميلة قد مال رأسها الى الأمام .

وفي خلال هذا الشعر الأشقر ، تاهت هذه الأيدي البيضاء .

كما سبج البجع على سطح الماء الشفاف

..

وهكذا يجد المرء أكبر لذة في استظهار هذا الشعر الحنون المعجز
كمثل قصائده التي ترجمنا بعض أبيات منها ، كمثل المقطوعة التي
تبدأ بقوله :

لقد عرفته دائما مفكرا رزينا

..

أما ما لم يتأثر كثيرا بالعنصر الانجليزي عند سانت بف فهو ذوقه
بوفنه في رسم وتخطيط رغبات النساء الخالية من المغالاة والحدة الشائنة
وبطريقته الطريفة في المداعبة الماجنة ، ورفاهية أسلوبه التي تبلغ
الذروة . وتلك المميزات جميعها تتجلى في قصيدته التي تغنى فيها
« بروز » ذات الشعر « المنفوش » الطايق .

لم يكن كل شيء رائعا صافيا في جدول سانت بف الذي ينبع من
البحيرة الهادئة السطح الجميلة المنظر . فهو بعيد عن نهر « لوس »
حيث كان كوبر يتنزه في صحبة أحلامه الطفولية الزاهية البريئة ، وعن
غرفة العمل القائمة في طريق « السيد الأمير » حيث كان الكثير من
المتفائلين يضطربون ويتحركون . ان جوهر سانت بف الحقيقي هو
جوهر عاص مضطرب ... ومعذب !

ونحن نجد ضمن أشعار جوزيف ديورم مقطوعة فريدة ، قد

لاحظها كل القراء ، ووقفوا عندها طويلا . ولذلك يجب أن نقف - ونقف معنا أيها القاريء - قليلا لنكشف السر ونرفع الغطاء . ونعني بتلك المقطوعة الفريدة ، تلك التي أسماها سانت بف « الأشعة الصفراء » .

لقد قرأ سانت بف في أحد الايام في خطابات الأنسة « فولاند » وصفا رائعا لمشاهدة جديدة خصبه . ولقد كان هذا الوصف الرائع شبيه - من بعض الوجوه - بثرة ديدرو العظيمة القيمة بثرة ذلك الرجل الذي « عرض حياته لكل ربح » .

وهاك ترجمة بعض ما جاء في هذه القطعة التي وقف عندها سانت بف متأملا مفكرا : « شيء طبيعي واحد يمكنه أن يحمل العقل على الاندماج والامتزاج في (لانهايات) من الأشياء المختلفة . فلنأخذ لونا الأصفر مثلا . الذهب أصفر ، والحزير أصفر ، وقشة التبغ صفراء ولكن المجنون وحده هو الذي لا يلاحظ التغير .. هو يأخذ قشة تبغ صفراء في يده ، ويراها ساطعة وهاجة ، فيصيح أنه قد قبض على خيط من خيوط أشعة الشمس ! »

وهنا يتخيل سانت بف نوعا من المرائي الشاكية الحزينة ويجمع فيها ذكريات وأحلام ويربطها جميعا بهذا الخيط الأصفر الذي إبانته ديدرو ، وتكلمت عنه فولاند .

فهو يرى خيطا من خيوط الشمس المائلة الى الفروب ، الذي تسرب في خجل وحياء ، الى غرفته عبر نافذتها المفتوحة . فيجري في خياله شريط من الصور التصويرية مثل : الكنيسة التي كان يرى فيها أثناء حدائته ، وأيام طفولته ، المصاييح الصفراء ، والجبهات المصفرة للقساوسة الذين تقدمت بهم السن . ثم ذلك العاج الأصفر المطعم به صليب البيعة . وكتاب القديس أو كتاب الترتيل الأصفر الذي يغري كل متدين مؤمن . ثم الشوموع الصفراء التي أحاطت بسرير عمته وهي تحتضر وتلفظ أنفاسها الأخيرة .

ان هذه الأفكار أثناء تتابعها في خياله ، لا تجد في طريقها عقبة تعوقها ، بل تنساب في سهولة بسيطة كما عرضناها . ولهذا تبدو طبيعية وتكون ما نسميه « بالحلم الإجباري » . ولكن هذا التتابع في الأفكار لا يحدث في الواقع بتلك الكيفية . فنحن لا نترك عقلنا ينتقل من فكرة الى أخرى بهذه الطريقة القياسية الهندسية حينما نرى اللون أو نشم الرائحة . بل نحن نحاول أن نتبع ذلك الخيط الذي يربط الأفكار بعضها ببعض ، نتبعه الى نقطة معينة . فحينما يظهر لنا هذا الرباط أو الارتباط بمعنى أدق ، لا نستمرسل معا الى نهايته بل نقطعه ونقف عند حد محدود . أما سانت بف فعلى العكس من ذلك تماما فهو يسير مع الخيط الى النهاية ، لأنه مرشده ودليله . وهو حينما يلاحظ أن هذا الشيء أصفر ، وأن هذا الشيء أصفر كذلك ، يخاطبنا وكأنه يقول « أتري كيف أتقل بحداقة وفطنة من هذا الأصفر الى ذلك الأصفر » . وهو في حالته هذه ، يشبه أو يقلد ذلك الرجل الذي تكلم عنه ديدرو .. ذلك السفية عديم العقل الذي لا يلاحظ تغير أفكاره . وذلك المجنون الذي يتقص كل فرد منا في ساعة خاصة معينة !

ولما كان ذلك الكتاب الضخم قد فتح عن قسم «الشعاع الأصفر»
فيجب الا نقلب الصفحة قبل ان ندلى بملاحظة اخرى . ذكر الشاعر
وصفا لحفلة دفن عمته العجوز ثم اخذ يفكر :

وهي مع ذلك تحبني ... وأمي كذلك .

وسستموت أمي هي الأخرى !

هذه الفكرة لابد ان تصدم القارئ ولكنها لا تصدر الا عن الشاعر
الرثائي المتوجع . واليك الظروف التي أوجتها اليه . ماتت مدام
سانت بف في ١٧ نوفمبر عام ١٨٥٠ وهي في السادسة والثمانين من
عمرها ونحن نستطيع ان نقدر مقدار الحزن العميق الذي كابده من
فراق أمه الحبيبة ، اذا قرأنا نبذة من هذا الخطاب الذي أرسله سانت
بف الى الأب بارب . يقول الشاعر في خطابه : «لقد تركتها (يعني أمه)
فرحة ضاحكة في الساعة السادسة والنصف .. وبعد نصف ساعة
دهمني الحزن عميقا شديدا ، وانتشر في سرعة هائلة حتى غمر محيط
حياتي كله لقد كنت اعتقد اني وحيد قبل ذلك ولكني لاحظت اليوم
فقط اني حقيقة وحيد فريد ، وأنه لا يوجد أحد خلفي .. ولا أحد
كذلك أمامي .. »

وهذه الفكرة قد سبق ووردت في اشعار « فرانسوا فيلون »
لقد مات والدي

..

وانا انتظر ، فوالدتي هي الأخرى ستموت

ولكن فرانسوا فيلون ولد في قرن مظلم عبوس .. عصر « رقص
القبور » ، ولم يكن يميل أبدا الى السهولة وأنعمومة ولقد كان شابا
شيقيا عرييدا ، ولكنه أظهر في هذه الحالة الخاصة رقة قلبه ، وخصوبة
خياله ، ونعمومة تعبيره ، تماما مثل مقلده الحديث فهو اذا قال ان أمه
ستموت ، واذا وقف عند هذه الفكرة ، فليس هذا لأن شعاعا مصفرا
قد طاف بعقله . لا ، بل لأنه كان يفكر التفكير المسيحي وهو أن كل أبناء
آدم قد ولدوا للموت . هذه الناحية المؤثرة لانجدها عند سانت بف ،
وذلك لأن نفس المنبع الأنجائيزي ، ونفس هذه المقطوعات الصافية التي
تعنى بالعواطف الهادئة ، والتعبيرات الدقيقة وتعنى بها اشعار «جوزيف
دبلورم » ، ينقصها الهدوء والاستقرار في النغمات . فالتعبير فيها محدد
كالفكرة نفسها . ولذلك نجد الشعر يتلوى ويلتف . ولكن يظل مؤثرا
محزنا يبعد عن الخشونة والفظاظة . أن هذه الأشعار تشبه السائل
المتخمّر الثائر ذو انطعم الحريف ... ولكن هذا الطعم نادر الوجود !

يوجد في مجموعة اشعار سانت بف الاولى قطعة مقفاه « من نوع
اللزوميات في شاعر أبي العلاء » ان جاز لنا أن نشبه الشعر الأوربي
بالشعر العربي . ومقطوعة أخرى من وزن جديد ، يتجلى فيهما العنصر
« الابتداعي » . ومن أجل هاتين القطعتين هاجم فيكتور هيجو المحرر
الشاب لجريدة الجلوب حوانى ١٨٢٧ .

وقد نشر سانت بـف في أعداد الجلوب الصادرة في ٢ ، ٩ يناير عدة مقالات عن نظريات وأشعار فيكتور هيجو . وقد خلا نقده تماما من اللين والمجاملة فيما يختص بفلسفة الجمال في المذهب «الرومانتيكي» . لقد أترف ليفكتور هيجو « بموهبة عالية » ، ولكن هذه الموهبة قد أتلها التفخيم والزخرفة . ولقد لأمه على « مقالاته في التشبيه » ، والشطط المبالغ فيه ، والمجازات العقيمة ، والخروج على جوهر الاصطلاحات ... الخوهنا يشكر هيجو الناقد ويقول : يجب أن يصعد المرء عدة درجات أخرى لكي يستطيع أن يشغل منصب « البابا » !!

بعد أن نشر سانت بـف « أشعار جوزيف ديـلورم » استطاع أن يحتل مكانا في « ثوى الشعراء » ، وكان يجلس خلف فينى والرسم ، « بولانجيه » . واليك ما قاله فيكتور هيجو في هذا الصدد منقولا عن أحد معاصريه :

« من بين الأصدقاء الذين كانوا لا ينقطعون عن الحضور ، كان اثنان يأتيان كل يوم تقريبا : مسيو لويس بولانجيه ومسيو سانت بـف الذى كان محدثا لبقا ساحرا ، كما كان كاتباً ممتازا ... وكان يحدث بعد قضاء السهرة في منزل شارع « نوتردام دى شان » أن يطلب كل منهما من فيكتور هيجو تلاوة الأشعار التى نظمها في يومه أو يحدث أن يطلب فيكتور هيجو من سانت بـف هذا الطلب ، فيضطر الى القبول وهو خجل . وكان هيجو في نفس الوقت يحرض ليوبولدين الصغيرة وشارلوت على أحداث بعض الضجيج عندما يكون سانت بـف ماضيا في القراءة . فترفض ليوبولدين كما ترفض شارلوت . وهكذا كانت تسمع الأشعار الطريفة « لجوزيف ديـلورم » . »

لم يكـد عام واحد يمر على ظهور جوزيف ديـلورم ، حتى أخرج المؤلف في ديسمبر عام ١٨٢٩ ، وتحت اسمه الحقيقى هذه المرة مجموعة جديدة من الأشعار ونفى بها « التعزيات » . وكل الكتاب ينشر عقب البر الصادق القوى لشخص فيكتور هيجو .

كان سانت بـف في تلك الحقبة من حياته يقاسى آلام رغبة شديدة . . . رغبة التناول والزواج . ولهذا فان اهـداء ديوانه هذا هو نوع من التوسل الخفى ، الذى لا يمكن أن نفهم معناه الحقيقى اليوم ونستطيع أن نقول كذلك انه كان في تلك الآونة متصلا اتصالا روحيا متينا بمؤلف « كرومويل » ، ولكنه لم يقلده أو يتوخى طريقته . فهو لم يتأثر أبدا بذلك الأسلوب الوهاج ، وكان ينظر الى تراث العصور الوسطى الرومانتيكى على انه من ألوان الوباء أو الطاعون الذى يجب اتقاؤه والبعد عنه . وديوانه هذا عبسرة عن نوع من المرائى الحسونة . هى محادثات واستراضات ، ومطالعات ، أو حوادث أخرى أليفة ، تكون جوهر هذه المقطوعات التى أملتها يد الوحي الخفيفة اللطيفة ، والصصافية الرائقة ولكن هذا الكتاب لا يخلو من مواضع تعرض فيها الرغبات والشهوات عرضا مكشوفاً . وكذلك مواضع أخرى ، يتجلى فيها الذوق الذى يميل الى البر والتقوى ، ولكنها ألوان أخرى من البر والتقوى غير التى نعرفها ونمارسها !

أن الدين بالنسبة لسانت بف يمكن أن يشبه بعملية « التتبيل »
التي تعطى شعوره الطعم اللائق المناسب . وبهذه المناسبة نورد قول
مسيو « دي سانت - كيران » في معرض حديثه عن فرجيل أن « الدين
يقدم للارواح المترفة رفاهية أكثر .. الرفاهية التي تجعلنا نفقده » .

وكان شاتوبريان يعرف الثمن الذي يضيقه تأنيب الضمير الى
اللذة ... هذا الذي خلد ذكريات الحب العظيمة لعاشق « فليدا » ..
وقد أبانت « جورج ساند » (١) نفس هذه العاطفة في موقف الراهب
ماجوس بجانب ليليا .

وعماية الخلط أو المزج هذه لا توافق الا العصور ذات التدين
الذي يخالطه الشك ، والنفوس التي لا تتمتع الا بثلاثة أرباع الحرية !
ولقد كان سانت بف من أبناء عصر من هذه العصور ، وله نفس من هذه
النفوس . ولقد اعترف سانت بف بعد أن تقدمت به السن ، أى بعد
أن « تعقب كل السحب ! » ، بصراحة ومن غير موارد لمدام « هورتينس
آلار دي ميريتان » ، أن هذه الروائع اللادينية مرجعها المباشر هو
المرأة . قال : « لقد خضعت لبعض الخرافات المسيحية في زمني ،
ولكنها سرعان ما تبخرت .

لقد كانت بالنسبة لى كالبجعة التي تسبح في بحيرة « ليدا »
طريقة للوصول الى الجميلات ثم غزل خيوط الحب اللينة . ان
للشهاب زمنا ، وفيه يحدث كل شيء .

كم من مرة أغلق سانت بف حجرتة على نفسه وانغمس في قراءة
« اعترافات سانت أوجستين » ! لقد كان يفعل ذلك ليسبح في أجواء
الخيال ، ويرسم لنفسه صورة غريبة .. صورة الحبيب الذي قاسى
الأهوال من قبالة حبيبه ، وتردى في هوة الهلاك ! تحت هذا التلوين
التصوفى الحسى - ان صح هذا التعبير - اخرج كتاب Les consolations
لينا ومؤثرا الى درجة كبيرة . أما العنصر الأول من هذا التلوين فيختص
بمدام « ف . ه . » التي يصفها بقوله :

هى أكثر نضوجا من شجرة الكرم التي تنمو على مدخل الفار
والآن لابد أن تذكر أيها القارئ هذه المرأة السعيدة التي كان
صدرها يعلو ويهبط وهى تتنهد عن قلب من نار ! وذلك الشاعر الذي
يظن أن :

هذه السماء ستبقى رزقاء ، بعد أن نخفى نحن من هذا الوجود

والذى يبحث عن فكرة تعزیه وهو في غمرة سعادته :

نولد ، ونعيش ، ونموت ، فى نفس المنزل

أما التلوين الحسى فقد سبق وأشرنا اليه وبيننا أسبابه . وتقع
التعزية الثالثة فى نهاية الكتاب . وهى خاصة بذكریات الأجساد

(١) أديبة فرنسية كبيرة ولدت عام ١٨٠٤ وماتت عام ١٨٧٦ .

والأسلاف وتشيع فيها - كبقية أجزاء الكتاب - النغمة البسيطة الحزينة . وعلى الجملة ، فهذا الكتاب قيم عظيم الخطر من جميع نواحيه لأن المؤلف يخضعنا ونحن نطالع له لنفوذ القوى اللذيذ !

مما سبق نستطيع أن نعلم أن سانت بف قد أحب . وها هو يكتب من باريس في ١٨ ديسمبر عام ١٨٣١ إلى الأب « باري » ، صديق طفولته الذي يحترمه ويحبه إلى درجة كبيرة :

« لقد قاسيت آلاما كثيرة في هذه الشهور الأخيرة وهي آلام يحاول أن يتحاشاها وهو ينظر إلى باب السعادة - وإن الرغبة التي كنت أتمناها أصبحت اليوم أكابدها . إن هذه الرغبة تمتد وتشتد ولقد قذف هذا في حياتي بالكثير من الضروريات ، وبالمرارة الممتزجة بعنصر اللين ، وبواجب التضحية الذي سيكون من نتائجها الطيبة . ولكنه فادح الثمن لطبيعتنا » ولقد أضاف مسيو « فرانسوا موران » مؤلف هذا الكتاب القيم « شياب سانت بف » الذي قدمنا لك منه هذه النبذة السابقة قوله : « ولم تبق هذه الرغبة سرا في حياة سانت بف في هذا العصر ، ولكنه من ناحيته لم يعترف بها » . وذلك لأن الاعتراف بها كتابة ، ونشرها على الملأ يفقدها ثقة القراء فيصعب عليهم تصديقها . وبعد ذلك ، حينما أخذت عاطفته هذه تميل نحو الغروب والزوال ، كان يسره كثيرا أن يتذكر هذه الستة أشهر السماوية من حياته التي قضاها في اتمام كتابه Les consolations ولكن هذه الشهور لم تكن سماوية كما وصفها ، بل كانت في الحقيقة أقرب إلى الأرض منها إلى السماء ! وقد ظهر ذلك بوضوح في سيرة حياته في تلك الحقبة ، بل وفي نفس كتابه .

وسانت بف يحدثنا عن غرامياته الأولى . . . عن « بياتريس » صاحبة « بولوني سير مير » ، فيقول :

... أنت أيتها الكاميليا

أيتها الشقراء الحنونة ذات الجبهة الصافية ، أيتها الفتاة الهادئة الساكنة .

كم من الحدايق قد قطعتها وراء شره العيون !

حيث تعبق زهرة الكاميليا وغيرها من الزهور !

هذا هو اعترافه بالحب ، وهو اعتراف طفولي ساذج .

لقد كان سانت بف قبيح الوجه : فرأسه كبيرة حمراء ومعارف وجهه طفولية تبعث على السخرية . لقد حرمته الطبيعة من الزواج الذي يفتح أمامه قلوب النساء . أنه لم يهيا لأخضاع من يحب ، أو على أقل تقدير جذب قلبها إليه . ولهذا كان يتعذب ، ويقاسى الآلام المريرة القاسية . ومما زاد في آلامه أنه كان كذلك سوداوى المزاج متفجر الغرائز كما سبق وبيننا . لقد كانت هيثة « بايرون » (١) الجميلة

(١) لورد بايرون أعظم شعراء القرن التاسع عشر في إنجلترا .

ووجه شاتوبريان الجذاب تؤهلها للخوض في هذا الفمار بنجاح . أما هو فكان عليه أن يكتفى ويقنع بغراميات عابرة بسيطة خشنة ، ويرضى صاغرا عن انتصاراته الضئيلة الشاحبة فيها .

مضت عدة سنوات على نجاح كتاب سانت بف وهو نجاح هادىء سنعيد . ثم ظهر الشاعر بهيئة جديدة ، فقد طبع في عام ١٨٣٧ كتابه « أفكار أغسطس » . وكان ذلك عقب عودته من جنيف وقد تقاسم قلبه الحب الأرضى والحب السماوى ، وظلا في صراع دائم حتى استنزف كل منهما قوى صاحبه ، ونضب معينهما في قلب الشاعر . وكان الربيع قد ولى ومضى ، وماتت في نفسه أشياء كثيرة ، ولكنه كان لا يزال يتمتع بمقدرته العجيبة على الفهم . ولقد قال يصف نفسه في هذه الفترة من حياته : « كان الذكاء يطل على هذه المقبرة ، كأنه القمر الميت الشاحب ! » وكذلك جف جدول تمنياته وثقته ، فخلا كتابه الجديد « أفكار أغسطس » من عنصر الحب ، وقد قال سانت بف وهو يمزح عن كتابه هذا .

« لقد أعطيت « جوزيف ديورم » ، و « التعزيات » . ولم يبق لى إلا أن أقدم ذيل الفأر ، وقد جعلته يتلوى على حسب طريقتى ! »
ذنب الفأر ، أو ذنب كلب البحر ، فالذنب على كل حال كان ملتويا ملتفا بطريقة تثير الدهشة والاعجاب .

وكان الشعر في هذا الكتاب بسيطا مسليا ، حتى لقد خيل الى سانت بف أنه قد وجد اله الشعر . ولكن الجمهور القارىء ثار على هذا الكتاب . وقد قال سانت بف نفسه أن الجمهور قد أستقبل كتابه « استقبالا منفرا » .

وكانت شخصية اكبر مجموعة شعرية من مجموعات هذا الكتاب هي شخصية « مسيو جان » . ومسيو جان هذا هو ابن طبيعى لجان جاك روسو ، وقد أصبح من مدرسى الأطفال في القرية ، وبقي بسيطا خجولا في أخلاقه واعتقاداته . ولقد حاول أن يكفر بالرحمة المتواضعة والفضائل الهادئة عن النصر المشين الذى أحرزه والده . لقد تخيل الشاعر هذه الحياة ، وقص تفاصيلها بدقة مذهشة وبأسلوب سهل بسيط . وكان تلوينه لهذه اللوحة باللون الرمادى مما يجعلها اليمة حزينة . فهو يشعر بنفس الشعور الذى ينتابه وهو يعبر قرية فقيرة تظللها سماء ممطرة عابسة . وهو يسير في طريق طويل قد كساه « الوحل » في كل جزء من أجزائه . ولكن القارىء ثار وهام : « ما هذا الجو الموحش القاتم ؟ وما هذا الطريق الموحد المملوء بالحصى ؟ » فيجيب سانت بف على قولهم هذا :

« ان هذه الخشونة القاتمة قد زرعت لغرض آخر ، لغرض خاص فأشعاري سترتاح لها أذنك لأنها مطرية مشجية ولكن على طريقتها الخاصة . وسوف لاتسمع شيئا من سجعى أو جناسى » .
أما جماعة الأكاديمية الفرنسية ، وتقاد الصحف ، والنساء الأدبيات ، فقد أرتفع صوتهن جميعا : « يا الهى !! ان مدير مدرستك هذا صلف ممل ! »

وكان مدير المدرسة ، أو مربى الأطفال هذا شخصية لا نبالغ ونقول أنها مثالية « رومانتيكية » ، بل شخصية محددة .. شخصية رجل عادى . لقد كان الشاعر يعرف جيدا ما يريد ، ولهذا هياه لهذا الفرض بمهارة عظيمة . هو يريد أن يصل الى تلك الخصوصية والى هذا التحديد ، الذى عندهما تصبح بنات أفكارنا حقيقة لنا ويعرفها الجميع . ولقد حاول مسيو « دويلان » أن يخلق لنفسه مثل هذه الشخصية . ولقد أبدعها فعلا وسماها « الملاك الفاتن » ولكن سانت بف وجد هذا النموذج « لامرئىنى » خالص .

ولنرجع الى شخصية سانت بف . لقد وصل صاحبها الى قصده لأنه كان يجب عليه أن يخرج من بين السحب ، ويجول فى مكان ما ! ولقد كان الشعر يطفو تارة على وجه هذه الأمواج الفكرية ويفوص أخرى ولكن الحقيقة أن سانت بف وجد نوعا من الشعر مستساغ المذاق ، لا يفضب أحدا . لقد فتح سانت بف ميدانا جديدا فى مجموعة أشعاره الأخيرة . ولذلك أخذ يتساعل عما اذا كان « رويار كولار » ، و « بوالو » يمكنهما معا أن ينتجا شيئا من الشعر الحديث . لقد تحمل الأسلوب فى هذا الكتاب مالا يمكن أن يحتمله من المعانى الصعبة المعقدة . ولذلك تقرر الأسلوب وأصبح غريبا فى طابعه غرابة تدنيه فى بعض الأحيان من الفساد والنشاز . لقد سبق ولاحظنا فى « أشعار جوزيف ديورم » بعض الشطط الجامح مثل قوله :

فوق منضدتي اللبن الرائق الصافى ، وفى سريرى عين سوداء
حالكة !

ولكن هذا الشعر - رغم شططه الجامع . يمكن أن يعد من الأدب الكلاسيكى ، اذا قورن بالشعر الذى يطالعنا فى « أفكار أغسطس » مثل :

ولكن قامتها انتشرت وقفزت ، وأخذت تطارد بقر الوحش

واذا قلب القارئ عدة صفحات من هذا الكتاب ، وجد تعبيرات غريبة : يلاحظ فيها الحذف ، واستعمال التشابيه الغريبة ، وتفشى صيغة التفضيل التى لا تقدم ولا تؤخر .

وكان الشاعر قد أولع باستعمال الافعال الناقصة فنراه ينشرها هنا وهناك ، لأنه يظن أن المعنى فى هذه الحالة يكون منتشرا فى الكلام فيكسبه روعة شعرية جذابة . ويلاحظ القارئ كذلك ، لونا من الرطانة أو « اللفة الأعجمية » كما نسميها عندنا . وهذه اللفة يصعب على المرء فهمها الا اذا كان فطنا ذكيا . وذلك مثل قوله مثلا :

« فضلات الخبز المنتهية » . وغنى عن البيان أن ترجمة أمثال هذه (الاصطلاحات) يعد من الأمور العسيرة كما أن الثوب العربى لا يعطيها معناها الذى قصد إليه سانت بف .

كل هذا جعل القارئ يسأم ويمل . لأنه لم يكن يريد أن يبحث

في خلال هذا البحر الزاخر من الغرابة والمعاني المعقدة المفلقة ، عن الأشعار الساحرة الجذابة .

ولكن على الجملة فهذا الكتاب هو الآخر كتاب قيم اذا صرفنا النظر عما سبق وشرحنا من نقائصه وعيوبه ، والكنز ان لم يكن رائقا فهو كنز على كل حال !

وأخيرا نستطيع أن نقول أن الكتب الثلاثة التي اشرنا اليها وهي « أشعار جوزيف دي لورم » ، و « التعزيات » و « أفكار أغسطس » تشرح لنا النواحي المختلفة لطبيعة واحدة . فنحن قد رأينا سانت يف قد تمكن أن يخضع نفسه ، ويرغمها على قبول ثلاث عناصر متبانية . وهذه هي حالة البشر جميعهم . فنحن لا نبقى لحظة واحدة أي لا نكون « انفسنا » في كل لحظة . ولكننا مع ذلك لا نتغير فنصبح « غيرنا » . . نحن نتحرك ونثور ونضطرب ولكننا لا نتغير .

وسانت يف يظهر لنا في احواله الثلاثة - التي تشرحها لنا كتبه الثلاثة ، كذلك الرجل المتفجر العواطف ، السوداوى المزاج ، والرجل الذكي الحاذق ، وأخيرا الرجل المتألم الشاكى . أما احوال الرجل الأخرى فهي بنت المصادفة ، ووليدة الظروف . فلقد رأينا في « جوزيف دي لورم » ثور في نفسه الرغبات الجامحة ، وتنعكس على صفحة حياته الآلام التي أوروثتها له أيام طفولته الأولى . وهذه الناحية الأخيرة ناحية الألم والتعاسة ، هي التي يحاول المرء أن يتخلص منها . فالمرء يعتقد طويلا أنه تعيس ، وأنه صاحب ألم عظيم . ولكنه بعد ذلك ، يعلم في يوم ما ، أنه كان مخدوعا وأنه حتى في فترات الألم الشديد كان يعيش الحياة العادية .

وكتاب سانت يف الثأني Les consolation يعبر تماما عن هذه الفترة من الحياة . فقد أظهر الكتاب سانت يف في حالة تقرب من الهدوء والرضى . وذلك لأن عواطفه كانت قد انصهرت وفصلت عن العناصر القريبة الضارة . ولهذا السبب نرى أسلوبه قد عذب ، ولانت طريقة صياغته وتعبيره .

ولكن الرغبة - التي تستطيع بمفردها أن تطعم الأشياء بعنصر الجمال - اخذت تخبو شيئا فشيئا مع تقدم السن حتى خمدت في نهاية الأمر . .

لا شيء اذن سيضحك ويبتسم بعد ذلك ، والوداع لتلك الأسرار الساحرة العظيمة التي تملأ لنا الطبيعة ، وتجعلنا نتسلى بالحياة في عالم باسم ! هنا يتعب المرء ويجهد بعد السير الطويل . هو في مرحلته هذه لا يعطى شيئا للحياة ، بل يتقاعد ، ويجد نفسه قد خدع فيفكر هو الآخر في الخيانة والخداع !! وهنا يشعر المرء بقبضاء كريهة تتسلط عليه وتجعله يكره نفسه ، كما يكره غيره من الناس . ولكن الذكاء سرعان ما يقف على قدميه ويتسلط ويحكم على اطلال هذه العواطف والشهوات الخطرة . ولا يهتم المرء حينئذ الا الفهم والشرح ، ولا يقيم وزنا للقول الا اذا كان يطفى شهوة حب الاستطلاع .

في هذه المرحلة من مراحل الحياة يقدم لنا سانت بف « أفكار أغسطس » .

وهنا يلاحظ القارئ أننا بتتبعنا آثار هذا الشاعر قد تتبعنا في نفس الوقت حياة (الرجل) .

والآن لا يجب أن نطرح جانباً ، أو ننبد شيئاً من هذا الشعر فلقد رسم لنا لوحة رائعة للنفس الانسانية المتشوقة ، التي تتربع على قمة الفطنة والذكاء ، والتي تتشابه فيها العناصر وتتعدد . هي نفس فريدة لم تنتج مثلها الحضارات القديمة !

مدام دی سال

(۱۸۱۷ - ۱۷۶۶)

عناصر البحث

- لوحة حياتها
- تحليل شخصيتها
- مذهبها السياسي ، وعقيدتها الدينية
- أفكارها الأدبية

لوحة حياتها :

ولدت « جرمين نكر » سنة ١٧٦٦ • وقد ظهرت عليها ملامح الذكاء وامتازت بدقة الملاحظة ، وحسن التعبير عما يجول في نفسها من آراء وأحلام • وهى لا تزال طفلة صغيرة تلهو وتمرح مع لداتها ، ولقد ساعدها نضوجها الفكرى المبكر ، وهى لا تكاد تناهز الحادية عشرة من عمرها ، على حضور أيام استقبال والدتها للصفوة من العلماء والأدباء والفنانين فى ثوبها المشهور • وهكذا تكونت عناصر عقلها ، وتفتحت براعمه تحت قوة هذه الاشعاعات الشديدة •• اشعاعات العلم والفن والادب التى كانت تتولد من بعض العقول الجبارة مثل : راينال - توماس - جريم - موريل - سوارد - وبوفن ... الخ •

تزوجت « جرمين نكر » فى سنة ١٧٧٦ من البارون دى ستال سفير السويد • ولقد رحبت مدام دى ستال بالثورة الفرنسية فى أول أمرها ، واستقبلتها بسرور كبير ، وبتفنى غنية بالأمل ، جياشة بالامانى الباسمة المشرقة • وكونت لنفسها ثوبا أو (صالونا) ، أصبح بعد قليل هو المكان المختار الذى يجتمع فيه عشاق النظم الانجليزية من أمثال : مويه - مالويه - كليرمون تونير - ومونت مورانسى • ولقد حدثت فى سبتمبر سنة ١٧٩٢ أن اضطرت مدام دى ستال الى الهرب بسبب الاحوال السياسية المتغيرة المتقلبة فى داخل فرنسا • فغادرت باريس والتجأت الى « كويت » بالقرب من جنيف • ولكنها عادت الى باريس سنة ١٧٩٥ • فبدأت النشاط من جديد فى ثوبها ، وأخذ يتردد عليه جهابذة العلوم والفنون والآداب : دونو - كابانيس - جارا - دوديريه - م • ج • شينييه - وبنجامان كونستان • وكان هذا الاخير لا يتخلف يوما عن الحضور •

ولكن سرعان ما استبهدت فيها حكومة الديركتوار ، فاضطرت الى العودة ثانية الى « كويت » ، وبقيت فيها حتى سنة ١٧٩٧ • لقد حاولت مدام دى ستان أن تعيش فى سلام مع بوناپرت ، ولذلك مرت مدة لم يحدث خلالها ما يعكر صفو هذا السلام • واستمرت الحالة على هذا النمط الهادئ حتى سنة ١٨٠٠ • ولكن حدث فى يناير من هذه السنة ان كتب بنجامان كونستان - فى صالونها - مقالا طويلا يفيض دفاعا عن الأهالى ، وينذرهم بفجر عهد الارهاب • وعندئذ كان لابد من حدوث شقاق عظيم بينها وبين أولى الامر ، ولا سيما ان أدبها نفسه فى هذه الفترة وأعنى بها سنة ١٨٠٠ قد طعم بعناصر تلميحية رمزية خبيثة ! ومن ناحية أخرى كان صالونها فى

١٨٠٣ يضم بين جنبااته جماعة أخذت تشن حرب هجاء قوية على نابليون وأتباعه. وأفراد هذه الجماعة تتكون من : مدام ريكاميه - مدام دي بومون - بنجامان كونستان - س . جوردان - ومورو . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أخذت هذه الجماعة تحبك خيوط المؤامرات مع برنادوت ، ومورو وتتمنى بإخلاص سقوط هذا النظام الجديد .

ولقد انتهى الأمر بنابليون إلى الثورة . وتسلمت مدام دي ستال في أكتوبر سنة ١٨٠٣ الأمر بالابتعاد عن باريس مسافة لا تقل عن أربعين فرسخا فلم تجد بدا من مغادرة فرنسا ، فتركها وسافرت لزيارة ألمانيا ثم عادت بعد مدة وجيزة إلى «كوبت» . . وكان رجوعها متأخرا فلم تحضر موت «نكر» . ثم سافرت إلى إيطاليا ، وبقيت هناك حتى سنة ١٨٠٥ . وعادت بعدها إلى كوبت حيث كتبت كتابها العظيم «كورين» الذي صادف بعد نشره بقليل أكبر قسطنطين النجاح . وهناك في «كوبت» كان يزورها بعض الأصدقاء القدماء الذين تحرروا من سلطة نابليون . ومنهم : بارانت - الزباردي سابران - مونتى - سيموندى - وجيوتى الأصغر . عادت مدام دي ستال بعد ذلك إلى ألمانيا سنة ١٨٠٧ . وبعد رحلتها هذه نشرت كتابها القيم عن «ألمانيا» الذى أعدمت كل طبعاته الفرنسية بيد «البوليس الإمبراطورى» . كما أنها هى الأخرى تسلمت أمرا بالخروج من أرض فرنسا ، وكان ذلك سنة ١٨١٠ . ولم تكف الحكومة الفرنسية بذلك بل أخذت تبث حولها العيون والأرصاد وهى فى كوبت . كما أنها منعت من رؤية أصدقائها الذين شرد معظمهم بالنفى مثل : ريكاميه وماتبودى مونتمورينسى . ولقد استطاعت مدام دي ستال أن تهرب فى سنة ١٨١٢ وتلتجئ إلى بترسبورج ومنها إلى السويد . ثم سافرت أخيرا إلى إنجلترا . وفى سنة ١٨١٧ ، وكانت حينئذ قد أوشت على الانتهاء من كتابها «تأملات فى الثورة الفرنسية» ، اسدل الستار على حياة مدام دي ستال . . تلك المرأة التى صمدت لحاكم بامرء !



كان الظن السائد فى عالم الأدب ، أن مدام دي ستال وشاتوبريان لا يربطهما أى رباط فكرى أو روحى . ولكن الحقيقة هى - رغم تعارض المزاج والطباع والمبادئ فيهما - أنهما قد اتحدا فى دفع الأدب نحو هدف واحد .

لقد خلقت مدام دي ستال فى المذهب الابتداعى أو (الرومانتزم) الكثير من الأفكار ووسائل النقد والنظريات . وكذلك تلقت جماعة «الرومانتزم» من شاتوبريان ما يمكن أن نسميه «بالنزعة التصويرية» أو الخيالية الوهمية البالغة حد الكمال . هذه النزعة حددت معالمها مدام دي ستال وحققها شاتوبريان فى مؤلفاته .

تحليل شخصية مدام دى ستال :

عاشت مدام دى ستال فى القرن الثامن عشر ، بل نستطيع أن نقول أنها هى القرن الثامن عشر الحى . القرن الثامن عشر بجملته . وذلك لأن كل التيارات المعارضة تجد عندها المصب اللائق ، فتتدفق إليه من غير وهن أو ضعف .

مدام دى ستال هى ابنة جان جاك روسو فى حياته العاطفية القوية البالغة الحده ، والجامعة أكبر جموح . لقد وهبها الله مخيلة خصبة ولكنها مضطربة وثائرة فى خيالها ، وقلبا متأججا دائم الاشتعال تصهره فى كل يوم نيران الألم والافتتان وشدة الرغبة .

هى تتمتع بخصلة حميدة غريبة هى الاثرة العامة . فهى دائما فى عطش دائم الى السعادة لنفسها ولغيرها . فهى تكن للناس جميعهم الخير والعطف والعدل . كما انها تبغض من كل قلبها الاستبداد والتعسف فى الحقد . وعندها أن التعبير القوى للشخصية هو الخروج على الاوامر التعسفية بكافة ألوانها وأنواعها . وهى تريد أن تبسط شخصيتها فى أكبر دائرة ممكنة . تريد ان تتمتع بنفسها ، وفى نفس الآن تستغلها بالطريقة التى تحبها وترضاها . ولكن المثل الاعلى للتمتع أو الاستمتاع عندها هو أن ترى نفسها الكاملة معكوسة على مرآة نفس أخرى مشغوفة بحبها واحترامها . فمدام دى ستال تريد ان تمتد بكل عناصر شخصيتها فى نفس العاشق . وبهذه الطريقة وحدها تريد أن تحب . وهى اذا وصلت الى هذه المرتبة فقد وصلت الى السعادة . ولكنها كانت تواجه الكثير من العقبات والصعوبات فى طريق تحقيق هذا اللون من السعادة . فكل تجاربها فى هذا الصدد لم تتمخض عن الاستحسان العاطفى . ولقد انتهى هذا الشذوذ فى أحلامها وحقائقها ، أو فى عالم الخيال وعالم الروح الى نتيجة واحدة : هى تقوية وترتيب عناصر المذهب الرومانتيكى المتغلغل فى ثفايا عقلها .

كان «لكلاريس هارلو» و «فرتر» أكبر الاثر فى تغيير مجرى حياتها وهى شابة فى ربيع عمرها . أما «ولتر سكوت» فقد عطر أخريات أيامها بسحره الفنى . فشبت وهى تعتقد باخلاص وأصرار أن للقصة وجوداً حقيقياً فى الحياة . . وان الحقيقة هى القصة !

ولقد تهيأت فرصة فريدة لمدام دى ستال أشبعت تعطشها الى السعادة ، ذلك التعطش الذى سبق وأشرنا اليه . فقد استراحت أخيراً الى غرام عجيب ، وزواج غريب ونالت بذلك السعادة التى كانت تصبو اليها وتحلم بها .

لمدام دى ستال روح روسو القوية الحادة ، أما من ناحية العقل

والتفكير فهي ابنة فولتير .. ابنة القرن الثامن عشر الرزين العاقل فكانت ديانة هذا العصر هي ديانتها ، واعتقاداته هي اعتقاداتها . ولذلك نراها تؤمن بقابلية التقدم ، وبالكمال الضروري المحقق للانسانية . فهي لم يخامرها الشك أبدا في الحقائق المطلقة كوالدها الروحي روسو . وبذلك أصبحت حياتها كلها وثقا على تحقيق وتطبيق حقائقها المغروسة في نفسها . . . مهما كانت معتقداتها هذه جامدة أو مطاطة غريبة أو مألوفة فالواجب يقضى بتصديقها والايمان بها لانها - كما تراها هي - حقيقة لا ريب فيها . وهكذا أصبحت نزعتها الرومانتيكية تهدف نحو الروحانية الغامضة الساحرة .

ومدام دي ستال لا تستطيع أن تعيش كما تحب الا في باريس حيث أسست صالونها الادبي الراقى . أما محادثاتها فمسكره ، ينتشى بها السامع كأنها كأس الخمر المعتق القديم . وأفكارها تنبعث من عقلها في قوة شديدة تذهل وتصعق ! وكان اعجابها لا ينصب الا على الأشخاص العالميين من أمثال : «جوير ، وتاليران ، ونوريون ، وبنجامان كونستان ، وكل من تتوسم فيه القدرة على صياغة الجواب الصحيح لاسئلتها . ومدام دي ستال ان لم تكن قد فهمت جيدا نفسية نابليون ، فان هذا يرجع الى نشأته المتواضعة ، ولان الفرصة لم تتسع لها لكي تجاذبه أطراف الحديث .

ولم تخلق مدام دي ستال للعزلة أو الوحدة فهي تخافها وتخشاها . . وهي لا تجيد التفكير الا اذا وجدت بين الناس ، امام سامع أو مع متحدث لبق مكالم . وتظهر هذه الخاصية في كتبها بوضوح عجيب : فمؤلفاتها لا تخرج عن كونها محادثه مستديمة مستمرة .

محادثة روح فسيحة الاتقاق ، نشيطة ثائرة تلفظ الافكار وتخرج الآراء بسهولة مدهشة . وهكذا يتلخص في أدب مدام دي ستال ، كل عناصر الادب في القرن الثامن عشر . بل يمكن القول انها أضافت اليه شيئا جديدا . وتفسير ذلك ان مدام دي ستال دولية - ان صح هذا التعبير - لا تتقيد بالحدود والتخوم ، أو بالممالك والمقاطعات . وهي تعتبر أهل فرنسا من الوجهة النظرية لاشيء غير أفكار ورغبات . أما من الوجهة الواقعية فكانت تؤمن بعجزهم عن الخروج « من أنفسهم » . وذلك لان ادعاء حبهم لمختلف الاوطان والتنقل هو في الواقع ستار كثيف يخفى وراءه الغرض الجوهرى وهو صب الانسانية كلها في قالبهم الخاص . ومن أجل هذا رفضت مدام دي ستال ان تكون فرنسية بهذا المعنى وعلى هذا الوجه . والظاهر أن لارومتها واصلها بعض التأثير في موقفها هذا . فأهل سويسرا مثلا بحكم موقعهم الجغرافى الذى يجعلهم على اتصال بكل من فرنسا وإيطاليا وألمانيا ، نجد عندهم صلاحية خاصة لفهم الاوضاع النفسية الخاصة لهذه الشعوب كلها . فذكائهم والحالة هذه من نوع الذكاء الجامع . هذا هو الطابع المعروف لكل أهل سويسرا الذين ألفوا فى الفرنسية . وهنا يجب أن نبعد جان جاك روسو عن هذه الحظيرة لان الروح أو الطبيعة الفرنسية قد تغلغلت فيه الى الاعماق . ولكن كل من مدام دي ستال ، ومارك مونييه ، وشير بوليه ، وادوارد رود ، تراهم جميعا يتصفون بما

يمكن أن نسميه «النفسية الأوروبية» كما تقول مدام دي ستال نفسها .

وقد ساعدت ظروف الحياة ، والاحوال السياسية الداخلية في فرنسا مدام دي ستال على التنقل وعدم الاستقرار فانها حينما غادرت باريس مرغمة عاشت في «كوبت» حيث شيدت صالونا أدبيا قيل عنه ان له ثلاثة أبواب تطل على فرنسا وإيطاليا وألمانيا . وفي كوبت استطاعت أن تتنسم بسهولة عبير إيطاليا وألمانيا ، وتشعر بجاذبيتهما عن قرب . ثم تركت كوبت وسافرت الى روسيا فالسويد وأخيرا استقر بها المقام في إنجلترا . فمدام دي ستال اذن قد طافت بأرجاء أوروبا ، واستطاعت ان تفهم تياراتها السياسية والأدبية حق الفهم . وسوف نرى بعد قليل أهمية تنقلها هذا في تقدم وتوحيد المذاهب الأدبية . ولنكتفى هنا بقولنا أن مدام دي ستال قد خلقت أدبا جامعا ، مطبوعا بالطابع الدولي . أما قبل مدام دي ستال فلم يعالج الأدب الفرنسي موضوعات العالم الأوروبي إلا بطريقة تخطيطية عقيمة تشبه ما نسميه « بالرسم الكاريكاتوري » . فمدام دي ستال قد استطاعت بقوة تفكيرها أن تفرق وتميز بين شخصيات كل شعب ونفسيته . فهي تعرف الروح الألمانية ، والحياة الألمانية وتميزها عن حياة فينا ، وتفرق بين حياة فينا وبين حياة برلين . بل أكثر من ذلك هي تفهم روح أهل شمال ألمانيا وتميزها عن روح أهل الجنوب . أما عن روسيا فالامر يختلف . لأنها لم تستقر فيها ، وتخالط أهلها بل مرت وهي في خوف عربة السفر . ولكنها مع ذلك استطاعت أن تقف على بعض معالم المجتمع الروسي ، وتفهم بعض الفروق الجوهرية التي تبعده عن عصبية الشعوب الأخرى . وفوق ذلك نجدها قد شعرت بتعقد نفسية الطبقات الحاكمة هناك ، وبمظاهر بدخها المغطى باستار مدنية عقبه الأريج .

ومن هنا كانت قصتها « كورين » من القصص الدولية العالمية . بمعنى ان شخصياتها لم تتأقلم بأقليم خاص . . . فالإنجليز والفرنسي والإيطالي قد صبوا جميعا في قالب جامدة بعض الشيء ، ولكن هذه القوالب قد هذبت وأكملت فيما بعد بدراسات علمية وفنية وأفرة .

وأخيرا يجب أن نشير الى العنصر الأخير الهام من عناصر عبقرية مدام دي ستال . فهي لم توهب « طبيعته فنية » على الإطلاق ، ولكنها - ولا شك في ذلك - لها مخيلة غنية عاطفيه . ولكن هذه المخيلة ليست من ذلك النوع الذي يفهم فلسفة الفن . ومن هنا كان عدم قدرتها على اتخاذ خلجات قلبها أو تموجات عواطفها كمادة حية للفن ، وكذلك فشلتها في إبراز شعورها الخاص في قالب مؤثر صريح . وبمعنى آخر علم قدرتها على ترجمة مايجول على مسرح نفسها ترجمة صحيحة سليمة . وكان كل عملها - في هذا الصدد - ان تترك هذه الخلجات والتموجات تمر من غير أن تتصدى لها بالتحليل والتشريح . وكان يجب عليها - اذا أرادت أن تترجم هذه العواطف - ان تصوغها في قالب فكرية خاصة بها وحدها ، ولكنها لم تفعل لأنها كانت تعتقد ان وظيفة القلب - كغيره من أعضاء الحواس - هي المعرفة .

لم تكن مدام دي ستال تتأثر بالطبيعة كثيرا فهي لا تراها الا اذا (أرادت) أن تنظر . ولذلك لم ينضج محصولها الضئيل من مشاهدات الطبيعة الا في تنور المعرفة والدراية العلمية . أما جانب الطبيعة الحى الذى يحتاج الى ريشه فنان عبقرى ليرسم لوحتها بظلالها وألوانها الغريبة ، فلم تستطع مدام دي ستال الوصول اليه أو الاقتراب منه . وهنا تقترب قليلا من شاتوبريان . فمدام دي ستال قد فهمت الريف الساذج وصاغت فهمها هذا بعبارات صريحة . أما شاتوبريان فانه حينما يقدم لنا لوحه الريف هذه فانما يقدم نفس شعوره وتأثره الشديد . ولا غرابة فى موقف مدام دي ستال هذا من الطبيعة . فهي التى تركت المناظر الساحرة التى تحف بخليج نابولي و (فيزيف) ، لتجاذب أحد الاصدقاء أطراف الحديث فى غرفتها !! ان الفن الخالص لا يلهمها شيئا . ويكفى مقارنة أوصافها التى جاءت فى كتابها كورين بالوصاف التى شاعت فى كتاب شاتوبريان الخالد « الشهداء » . للتأكد من ذلك . ففى الكتاب الاخير يلاحظ القارى لوحات طبيعية فنية رسمتها يد فنان متمكن من فنه . أما فى « كورين » فلا يجد غير مذكرات سائح قد تملكته شهوة الاستطلاع . خلت مدام دي ستال من الشعور الفنى . فهي لا تتأثر الا بالذكريات التاريخية ، وبالأفكار العابرة التى تولدها المصادفات . وهى فى « كورين » نجدها أحيانا تتمتع بصفات المرشد أو الدليل الجامد العاطفة ، وأحيانا أخرى نراها تتقمص روح الشاعر الحالم . زارت مدام دي ستال إيطاليا ، ولكنها لم تستفد كثيرا من هذه الزيارة . فلقد هرب الادب الايطالى أمام عقلها وتفكيرها . أما الفن من نحت وتصوير فقد تقبلته ببرود ، وحكمت عليه حكما قاسيا . ويرجع ذلك الى قصر مدة زيارتها لإيطاليا .

أما فى الادب ، فلها ذوقها الخاص الذى يقنع - من الوجهة السلبية - بجمال القوالب الادبية وجودة التعبير وبلاغته . أما من الوجهة الايجابية المباشرة فهي تكتفى بالعاطفة الغنية الخصبة ، وبالتعبيرات الشخصية أو الذاتية .

لم تفهم مدام دي ستال شيئا من روائع الادب الاغريقى كما لم تفهم الادب الفرنسى فى القرن السابع عشر . واكتفت بأدب الشمال الموغل فيما وراء الطبيعة ، الموغل فى الشاعرية واخيرا الموغل فى الذاتية الشخصية من ناحية المعنى ، والغرابه الشاذة من ناحية الوضع والاسلوب . ولهذا السبب افتقر معظم انتاجها الى « فلسفة الجمال » .

ومدام دي ستال كذلك لم توهب قدرة الخلق والابتداع . ونحن نلاحظ ذلك بوضوح فى كتبها « دلفين » و « كورين » . فالقارى اذا خرج من نطاق محدد فى هذا الانتاج . . اذا خرج عن نطاق ترجمة مدام دي ستال عن نفسها أو معرفتها الواقعية فانه لن يجد شيئا له قيمته بل سينجد أفكارا جوفاء فارغة .

وهيأتان القصبتان لاتساويان شيئا اذا لم يبحث القارىء فيهما عن احساسات وأفكار مدام دي ستال نفسها . اما اذا اعتبرناهما - من ناحية

جودتهما البلاغية - من التحف الأدبية ، فيجب أن يعدّهما من « أرائيك
الرسم » كذلك فأبطال مدام دي ستال أمثال : (ليونس) و (دلفين)
و « اسوالد » و « كورين » لا يمكن أن يوجدوا في حياتنا الواقعية
الأرضية ، كما أنهم لا يصلحون للعيش بين ظهرانينا لأنهم من الشخصيات
الغامضة المبهمة . ولكن إذا استطاع القارئ اللبق أن يرفع عن وجودهم
استثار هذا الغموض والابهام ، الفى نفسه أمام مدام دي ستال وجها لوجه .
ولا بد أن يجد القارئ إذا لم يطالبها بأكثر من الحديث معها ، التسلية
والسرور وخاصة في « كورين »

وقد كان من نتيجة عجزها عن الابتداع والخلق ان انكبت على
الملاحظة . ولهذا لا يجب أن يطالبها القارئ بالبهرجة الفنية أو النظم أو
الوصف الرائع فهذا كله لن يجده عندها . بل سيجد الكلام الرائق الصافي
التي تغذيه الاخبار الفنية والملاحظات الصائبة . وبالاختصار نستطيع أن
تقول ان ماتقدمه لنا مدام دي ستال هو : الحديث الراقى .

مذهبها السياسى ، وعقيدتها الدينية :

لا تتمتع مدام دي ستال بعقليه نسائيه ، بل عقليتها أقرب ما تكون
من عقليات الرجال . ولا تظهر فيها (المرأة) آلا عند تعبيرها عن احساساتها
وتحت ضغط عواطفها التي دربت على ادراك أقل الوجدانات العاطفية .

ومدام دي ستال لا تؤمن بمذهب سياسى خاص فتقيد به نفسها
وعقلها . بل نراها تعشق الحرية السياسية . وموقفها هذا من السياسة
يمكن تفسيره وتحليله : فقد كان لحاجات ورغبات قلبها وعقلها أكبر الأثر
فى جعل سيرها غير منظم ولا متناسب .

فمثلا احترامها الذى يمازجه الحنان لابیها ، كون عندها وجهة نظر
خاصة للرجال والاشياء . فهي تعتقد باخلاص ان « نيكرو » هو بطل الثورة
الفرنسية . . هو المركز الذى شعت منه خيوط الثورة ، وهو المصب الذى
سوف ترجع اليه كل النتائج . وهي اذا اضطرت أن تشرح الدور الذى
لعبه وتبين موقفه ، اندفعت اندفاعا قويا شديدا الى الخوض فى تاريخ
أوروبا كلها من عهد لويس السادس عشر الى عصر نابليون ! وهي تعتبر
مادة هذه المواضيع كلها ضرورية لتشكيل تاريخ نكر . وكانت تجد من
رواد ثويها وأصدقاء أدبها كل التأييد على رأيها هذا .

ولقد افتتحت مدام دي ستال حياتها السياسية بتقدير واحترام الملكية
الانجليزية . ثم تمكن بنجامان كونستان ان يحول اعجابها وتقديرها الى
جمهورية الولايات المتحدة . ولقد حاولت من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٨٠٠
- وكانت فرنسا خلال هذه المدة تخضع لحكومات مختلفة هي الملكية
الدستورية ، وحكومة الديركتوار ، وحكومة القنصلية - تحقيق حلمها
وهو أن تجعل من صالونها مركزا للحركة الحكومية . ولكن فطنتها المرنة
كان يصيبها الشلل من غمرة عواطفها وحدة طموحها . فمدام دي ستال التي

فهمت جيدا وبسرعه فائقة كل خصائص الشعوب ، لم تستطع أن تفهم
فرائس الثائرة . ومن هنا جاء غروزها وعدم كفايتها في كتاباتها عن
« تأملات في الثورة » . ولكن هذا لا يمنع من وجود الكثير من الإحكام
العميقة والآراء المفيدة في هذا الكتاب الطريف .

لقد جمعت الكثير من المعلومات الطريفة وفهمتها وحللتها أحسن تحليل
ولكنها أسندت أذوارا كثيرة صعبة الى شخصيات خاصة ، وقدرت نتائج
بعضها كمقدمة لأعمالهم حسنة كانت أم سيئة . ولكن ما هو الاصل في هذه
الثورة ؟ ومن أعدها ومهد لها ؟ من حول مجراها ، ومن حدد أغراضها ؟
هذا ما لا تجيب عنه مدام دي ستال لأنها لا تعرفه . وعوضا عن ذلك تعطي
للقراري بعض الإيضاحات القصيرة المبتورة . هي لا ترى الا القوانين
الاساسية : فكل شيء كان يسير سيرا حسنا اذا كان للشعب الفرنسي
القانون الانجليزي ، ثم القانون الأمريكي ، ثم من جديد للمرة الثانية
القانون الانجليزي . ولكن هذا لم يتم ، ويرجع الخطأ كله الى حفنة من
الرجال الجاهلين العجولين سنة ١٧٩٠ ، وأصحاب الدسائس الطامحين
سنة ١٧٩٥ ، ١٧٩٩ ، والى الرجال الانانيين الحاقدين في سنتي ١٨١٤ ،
١٨١٥ . وكانت مدام دي ستال على اعتقاد جازم ان كل شيء كان يسير
في طريقه الطبيعي السهل لو « طبق القانون تطبيقا كليا » .

يمكن القول ان مدام دي ستال هي الأم لمذهب الاحرار النيابي والديني
فهي التي عدلت نظرية « مونتسكيو » بطريقة غريبة ، تلك النظرية
القائلة : « بانفصال السلطة التشريعية ، واستقلال السلطة التنفيذية وقبل
كل شيء مراعاة شروط الملكية : هذه هي المبادئ البسيطة التي تكون
الهيكل لكل قانون معقول » والمبدأ الاول والثالث على جانب عظيم من
الاهمية . وبواسطة المبدأ الاول يتحقق وجود السلطتين ، وتقرير قواعدهما
وبواسطة المبدأ الثالث تتكون في الاحكام النيابية ما يمكن أن نسميه :
« بالروح العبوس الغاضبة » . وبواسطة هذه الروح الجديدة تحول الطبقة
الوسطى مجرى الثورة لصالحها ومنفعتها ، ويتبدل امتياز هذا المبدأ الى
امتلاك الثورة ذاتها . وهذا يسبب القلق والخوف من الديمقراطية ، التي
أولى قواعدها مبنية على الانانية . وحسب رأي مدام دي ستال هذا تعتبر
« وظيفة المواطن تتناسب فقط مع ملكيته » وعلى هذه الفكرة يستند النظام
الاجتماعي كله . وهي اذا كانت محقة في رأيها هذا فان مشورة الجميع
تهدم الحكم البرلماني ، وتضع الملكية في أعظم الخطر . وهذا الرأي من
تأخيه أخرى يبرز هجمات جماعه الإصلاح ضد نظام الطبقة الوسطى
(البورجوازية) النيابي . وقد نبعت من تلك الفكرة تلك السهولة الغريبة
التي استطاعت بها مدام دي ستال أن تنتقل من الملكية الى الجمهوريه فهي
قد خلقت وقاياه اجتماعيه تتماثل مع حقوق الملكية . ان العمل الاول
الرئيسي للحكومة ، وكذلك للملك أو رئيس الجمهوريه هو السلطة
التنفيذية . ولذلك يجب عليه أن يحمي الملاك من تلك الكتل من « الرجال
الذين يبحثون عن فريسة ! » ، وان يعتبر كل قوائدهم المادية ، وارباحهم
المالية التي تعود عليهم من هذا المصدر من الجرائم التي يعاقب عليها
القانون .

ولا يجب أن ننكر أن مدام دي ستال كانت ملهمة فني تعشقها مذهب الإحرار ، بإعاب من الحب المتأجج للإنسانية وبرغبة حميدة لجنب الحرية والعدل والمساواة ، وبطبيعة فسيحة الرقة تنقص في أغلب الأحيان الإحراز وأصحاب المذهب ، الذين لا يعلو مستوى الإلهام الخالص عندهم عن أمور الدنيا وشوائبها كثيرا .

ولكننا نجهل السبب فني تحجر حياء عقلها وروحها ، وهي تنك المرأة التي عرفت شيئا عن روسيا سنة ١٨١٢ فأجبت أهلها جميعا . . . هذه المرأة نفسها هي التي لم تقم وزنا في فرنسا إلا لطبيعتها الراقية . وأخذت تنادي بوجوب تمتع طبقه خاصة بنتائج الثورة وهي الطبقة الراقية التي ينضم تحت لواءها الرجال ذوو النشأة الرفيعة ؛ أو على حد تعبيرها : « الرجال السادة الذين يمكن أن يستقبلهم المرء في (تويه) » وبعبارة أخرى فهي تعشق ارسطراطية الاشراف !

أما من الناحية الدينية فقد بدأت مدام دي ستال بمذهب فولتير : « فولتير بأنيزم » وهو عدم التفريق بين الأديان . وهي لم تضرب مطلقا على نغمة روسو الدينية . وذلك لأنها لم تفهم روسو إلا أخيرا وعلى يد الألمان !

ولقد تخولت مدام دي ستال قبل موتها بعشر سنوات إلى مسيحية ورعة ، ولكنها مسيحية لا تتقيد بالكنايس ولا بالاعترافات . ولعل أبلغ وصف يشرح لنا موقف مدام دي ستال من الدين هو ذلك الذي أثار عن المدوق « بروجلي » : حالة توسخ في الدين تمازجها الثقوي ، ومعني هذا أنها كانت تعتنق المذهب البروتستانتي الحر المستقل الذي لا يتعمق في اللاهوتية أو يقرب من التصوف . وهذه الديانة تجمع في نفس الوقت بين العقل والقلب ، بين التفكير والتعقل والعاطفة والحنان ، فهي ديانة عقلية قلبية !

وكانت روحها تتأثر أشد التأثير باعتقادها الديني ؛ أما موقفها من الاعتقاد فهو موقف المثاليه الرومانتيكية الجري . ولذلك نراها تظهر حماسها وافكارها الدينية بصراحة ومن غير التواء . فهي تعتقد أن وجود الله ضروري لها ، لكي يكلل مجهودها نحو السعادة بالنجاح وهي تؤمن بأن الله في لانهايته هو نفس هذا الحب اللامحدود الذي بحثت عنه خلال تجارب عديدة مريرة . ولقد لاحظت بعد ذلك ان فلسفتها ناقصة : فلن وضع الحياة في هذا الإطار الضيق من الأجاسات النبيلة ، ليس بالقاعدة الكافية للحياة . وان اللذة ، أو حتى لذة الرحمة نفسها ليست هي الفضيلة أو صورة خشنة منها . وكان الفيلسوف الكبير « كانت » هو الذي قدم اليها أو هداها إلى محنة الواجب وصعوبة انجازه . ولكن مدام دي ستال - وهي المرأة قبل كل شيء - لا يمكنها أن تقبل الأمر المحتم بحالته الجبرية الآمرة ، يجب أن تحققه . وأخيرا فالله عندها هو ذلك النور الذي يضيء الكون . . ذلك النور الذي جعله يفهم ويعقل . لقد أعطى الله لعقلها اللا نهائية العلمية ، وملا قلبها بلا نهائية الحب .

الافكار الادبية لمدام دي ستال :

ان الدور الذى لعبته مدام دي ستال فى الادب الفرنسى ، يعتبره نقاد هذا الادب من الادوار البالغة الاهمية ، الذى يجب على حشد تعبيرهم أن « يفهم ويفهم »

كانت مدام دي ستال توجه تياراتها الادبية الى ذكاء معاصريها ، وترغمهم على تعود ذلك اللون الجديد من التفكير . لقد قدمت الى أهل عصرها الكثير من الافكار والآراء التى وسع رقعتها فيما بعد ذلك الذكاء المعاصر . ولقد استطاعت بوسائلها المختلفة ان توجه الكثير من معاصريها ، وتجعلهم يستسيغون الميول الحديثة التى كانت قبل ذلك تعذب النفس وتسبب الآلام المختلفة ، والتى كان الذوق الادبى التقليدى يرفض لاجلها السياحة فى الاسفار الادبية ! وهكذا استطاعت مدام دي ستال أن تضع مبادئ ذوق أدبى جديد يوافق تماما الحالة الحسية الجديدة للمتأدبين .

وكان كتابها القيم الذى يبحث فى الادب والاوزاع الاجتماعية ونعنى

به كتاب : *De La Littérature Considérée Dans Ses Rapports avec les Institutions Sociales.*

الذى صدر سنة ١٨٠٠ ، من الكتب الغريبة المحيرة لانه أشد وضوحا فى تفاصيله منه فى جملة . هذا الكتاب ساذج فى بعض أبحاثه ، تصنع سذاجته هذه فى بعض الاحايين الى درجة طفولية خالصة . ولكن الكتاب بوجه عام من الكتب الفريدة فى نوعها ، وهو ان دل على شيء فانما يدل على ذكاء المؤلفة وفطنتها . لقد أخذت مدام دي ستال على عاتقها فى هذا الكتاب - أو على الأصح فى هذه الرسالة - ان تثبت أو على الأقل تؤكد أن الحرية والفضيلة والمجد من الاضواء التى لا يمكن أن توجد منعزلة عن بعضها . ولقد حكمت على ضوء تجاربها المكتسبة بأن الفترات التى ازدهر فيها الادب ونمى كانت من الفترات التى تتمتع بالحرية السياسية . ولقد ادعت مدام دي ستال أيضا أنه : « اذا تصفح المرء الثورات العالمية ؟ وتتابع العصور ثبتت لديه حقيقة القانون القائل : « بتقدم العنصر البشرى » . وهى « لا تظن أن هذه الطبيعة الاخلاقية قد هجرت فى يوم ما : لا فى عصور الانسان المضيئة ، ولا فى عصوره المظلمة » وكذلك تعتقد أن تقدم العقل البشرى لم يقف تياره أبدا . . . ذلك التيار الذى يندفع الى الامام دائما . ومعظم هذه الآراء قد استلهمتها مدام دي ستال من بحث لبيبرول ولكنها توسعت فيها وتصرفت . وكان من نتيجة أبحاثها هذه ان حكمت مدام دي ستال على العصر الاغريقى حكما قاسيا . فقد قالت انه عصر ضعف مظلم . قالت ذلك عن عصر لا تعرفه بل تجهله كما تجهل العصر الرومانى . وكان من الطبيعى اذن والحالة هذه ان تعتنق الفكرة القائلة بتفوق عصر لويس الرابع عشر على عصر « أوجيست » . وهذه الفكرة الاخيرة قد نادى بها « بوالو » نفسه .

ولكن سرعان ما تقدمت مدام دي ستال خطوة جديدة حاسمة . فلقد قالت ان الآداب الحديثة هى آداب مسيحية ، وان الادب الفرنسى يوضع

فى مرتبة دنيا اذا هو أكد قواعد واعتبارات الادب الوثنى القديم . وقالت
كذلك ان هناك من الآداب الاجنبية ما يفوق ويمتاز عن الادب الفرنسى ،
لأنها راعت الجمال الأدبى الحقيقى ، ولأنها كانت حريصة فى وطنيتها ،
وفى عنصرها الدينى المسيحى وهكذا نصل الى مبدأ جديد ، وهو مبدأ واسع
عميق حاولت مدام دى ستال أن تثبته وتبرهنه فى مقالاتها أو رسالتها
السابقة ، ويمتاز هذا المبدأ بأنه يشمل كل ألوان التقدم - التى جاءت
متأخرة فى فن النقد . تقول مدام دى ستال :

« لقد نويت أن أختبر وأعرف مقدار نفوذ الدين والاخلاق والقوانين
على الادب . . . يخيل الى أن المرء لم يحلل التحليل الوافى الاسباب
الاخلاقية والسياسية التى تنوع العقلية الادبية . . . ونحن بملاحظتنا
الاختلاف الشخصى ، ذلك الاختلاف المميز الواضح بين الكتاب الايطاليين
والانجليز والالمان والفرنسيين أعتقد بعد ذلك أن القوانين السياسية ،
والقواعد الدينية ، تلعب الدور الكبير الهام فى هذا التنوع الدائم . »

ومدام دى ستال ببحثها فى هذه الاختلافات وصلت الى نتيجة هامة
هى تقسيمها للادب الى قسمين : أدب الجنوب ، وأدب الشمال . « هومير »
من ناحية ، و « أوسيان » من الناحية الاخرى . من الناحية الاولى أدب
الاغريق ، واللاتين وأهل ايطاليا واسبانيا ، وأدب القرن السابع عشر
الفرنسى . ومن الناحية الثانية الادب الانجليزى والالمانى والاسكندناوى .

ومدام دى ستال تحب فى أدب الشمال صبغته الخيالية وذلك التهور
فى الحزن الذى وصفته بقولها : « الشعور الحزين بالمستقبل الغامض »
وهى تعجب كذلك بانصباب مسائل ماوراء الطبيعة الفلسفية على الارواح
المتأللة الحزينة الأسيانة - وهى - كما سبق وأشرنا - لم توهب الغريزة
الفنية ، ولذلك كانت ترى فى الكمال الفنى الخالص لونا من المضايقة
والاسفاف . ولهذا أيضا كان هذا الجمال الفنى المقيد بالصيغ والبلاغة .
يخفى عنها (شخصية) الكتاب الذى تقرأه .

ونحن اذا ابتعدنا عن مثالية (بوالو) المطلقة ، تلك المثالية التى
احتشدت فيها الجموع الزاخرة من الشخصيات المثالية ، التى تمتاز كل
شخصية منها بقالبها الوطنى الخاص . نجد حكم مدام دى ستال على
المثاليات قد اعتدل وامتزج بشئ من الليونة . وهى تتهم أدب الشمال -
وحتى انتاج شكسبير نفسه - بأنه خال من الذوق والطابع الاستعطافى ،
وكذلك ينقصه الطابع المادى المحسوس .

وكانت مدام دى ستال بعقليتها الخاصة تتكلم عن الالمان والانجليز ،
كما لم يتكلم أحد من الفرنسيين قبل ذلك . وهى اذا كتبت أو تكلمت عن
أدبهم تركت له الطابع الاجنبى ، وقدمته للقارئ الفرنسى فى هيئته الاقليمية
التي رسمها له مبدعها الاول .

ظهر كتاب « ألمانيا » لمدام دى ستال سنة ١٨١٠ . وهو كتاب قيم
جليل ، وهو من بين مؤلفات مدام دى ستال الكتاب الوحيد الذى يحيا

بأفكاره وآرائه وتدقيقاته العلمية . وهذا الكتاب يمكن تقسيمه الى أربعة أقسام : الاول عن ألمانيا وطبيعتها أهلها وخصائصهم وأخلاقهم . والثاني عن آداب ألمانيا وفنونها . والثالث عن الفلسفة والأخلاق عند الألمان . أما القسم الأخير فعن عقيدة الحماسية عندهم .

أما عن القسمين الأولين فهما يلامسان الألمان بلامسة مباشرة ، ويعالجان ما ينحصر في دائرتيهما من مواضيع بدقة متحركة ولذلك يخرج القارئ من هذين الجزئين بنتائج عامة فعالة ، لأن مدام دى ستال اتبعت فيها طريقة النقد الرومانتيكي . عاشت مدام دى ستال في ألمانيا العاطفية الحاملة المخلصة ، وبين الشعب الذي يقوده علماء ما وراء الطبيعة الذين لم تشتد شخصياتهم ولا وطنيتهم فتدفعهم في طريق وعر عرف عن ألمانيا فيما بعد . وألمانيا هذه ، التي تختلف تمام الاختلاف عن ألمانيا « هينري هاین » وعن ألمانيا التي عرفت فرنسا سنة ١٨٧٠ ، وهي ألمانيا التي عاش فيها ونزح منها الكثير من الأدباء الذين أخرجوا ثمرات عقولهم بالفرنسية .

والذي يهمنا هنا هو أنه بالرغم من ظهور « هاین » واضرابه فان ألمانيا بقيت الى سنة ١٨٧٠ من الأراضي الصالحة لنمو بعض العبقریات الفرنسية في الأدب والفن . ولقد أعطتنا مدام دى ستال في كتابها هذا صورة قد صبت في قالب أجنبي هو القالب الألماني نفسه . لقد أعطت للقارئ لوحة رائعة ، كل ما أختير من ألوانها وظلالها ، قد اختير بأمانة وحرية توافقان عقلها الجامح الذي لا يخضع لقيود أو يحد بأغلال .

في هذه اللوحة التي رسمتها مدام دى ستال لألمانيا ، راعت أن تكون دوحة الأدب أظهر ما فيها : تقول مدام دى ستال أن المجتمع في فرنسا يبتلع الرجل ، ولا يترك له مجالا آخر للنشاط والانتاج . بعكس الحال في ألمانيا . فالرجل الألماني لا يميل كثيرا الى حياة المجتمع الضاربة . ولما كانت العلاقة مستحكمة بين الأدب والخصائص الأخلاقية ، فان هذا الاختلاف سيولد في كل من ألمانيا وفرنسا ألوانا مختلفة غير متشابهة من الأدب حاولت مدام دى ستال - في القسم الثاني من كتابها - أن تلخص نظريتها في قسمي الأدب : أدب الشمال وأدب الجنوب . ولكنها في هذه المدة شخصت هذا التفريق بكلمة أصبحت عنها مأثورة وهي : « أن أدب الشمال يطبع بالطابع الرومانتيكي ، أما أدب الجنوب ، فيتسم بسيماء الأدب الكلاسيكي » . وهي تصر على أن الأدب الابتداعي (الرومانتيكي) وهو الأدب الوحيد القابل للانفاق والتنقيح ، وذلك لأن أعراقه تمتد الى تربة نفوسنا . هو الوحيد الذي في مقدوره أن يتضخم ويحيا من جديد لانه - كما تقول مدام دى ستال - هو الأدب الذي « يوضح عقيدتنا ، ويعالج تاريخنا » . وهو يستغل عواطفنا ويستخدمها ليحرك نفوسنا . « لقد استطاعت مدام دى ستال في هذه المرة أن تتحرر من الذوق الأدبي السائد في القرن الثامن عشر . فهي تجادل وتفارق بين ذوق المجتمع ، وذوق الأدب . وتبين أن أحدهما يتميز بالطابع السلبي القوي ، والآخر بالعنصر المحزن المشبوم إذا لم يمازجه الطابع الايجابي القوي .

ولقد استفادت مدام دى ستال كثيرا من معادئاتها الطويلة ، منع

الرجال الذين كانت لهم اكتشافات حديثة في عوالم الادب والفن والعلم والفلسفة . وقد كانت محادثاتها هذه ايام كانت هذه الاكتشافات لاتزال في دائرة الفروض التي لم تثبت صحتها بعد . . فروض جريئة في علم اللغة والتاريخ . ولقد زادها ذلك معرفه بالحقائق فيما بعد . قالت مدام دى ستال كلمتها عن (شعر الحماس) . تلك الكلمة التي هدمت الفكرة الفرنسية عن هذا اللون من الشعر ، وهي الفكرة التي ولدت في عصر النهضة ، والتي تقول أن شعر الحماس « هو قصة رمزية وخرافية » . فهي تقول ان الإلياذة والأوديسة « هما في الواقع ، كانتا من الاقاصيص التي تروينها المرضعات .

فهمت مدام دى ستال الشعر الالماني . بل نجد ان هذا الشعر قد تغلغل الى نفسها مع هواء تلك البلاد ، سواء أكان ذلك من شعر الطبيعة أم من الشعر الغنائي . وهي قد خفت من غلواء شعورها الارستقراطي ، ولم تنفر من «هرمن ودوربتيه» و «جسيوم تل» . ولقد أحبت على الخصوص ذلك اللون الملتف بازار قاتم من الغموض والتعقيد . لان هذا اللون في رأيها يغذى الفكر ويدرب الذكاء ، ويدفعه الى العمل . وهو فوق ذلك كله يحرك العواطف ويجعلها تمتزج وتختلط بالعناصر الفلسفية المختلفة .

ولذلك فقد أثر فيها أكبر الانز كل من : لسلخ ، وهردثر ، وشليجل ، وتحركت نفسها من الاستعارات والمجازات الفنية التي شاعت في قصيدة « فاوست » الخالدة . وكانت مدام دى ستال فرنسية حقا حينما وجهت مجهودها الرئيسي الى المسرح ، والادب التمثيلي . فهي تريد أن تكون الموضوعات التمثيلية حافلة بالعناصر التاريخية ، كما تحب أن يختلط العنصر الشاعرى بعنصر الدرام . وهي تقول ان « الغرض الفني ليس هو الغرض الوحيد الذي يعرفنا اذا كان البطل قتل أو تزوج ! » وهي تقدم لنا النموذج الحي للادب التمثيلي في انتاج « شيلر » و « جوت » فقد درست انتاجهما طويلا ، وشيكسبير التي كانت ترجع اليه دائما . ويمكن القول أن ملاحظات مدام دى ستال هذه قد عينت القالب (الهيكل) ، واتجاهات الدرام الرومانتيكى . ومام دى ستال قد هزت بعنف بعض القواعد المقررة فهي التي صاحبت قائلة :

« يقول البعض ان علم اللغة قد حدد في يوم معين من شهر معين . وانه بعد هذا التاريخ يعتبر ادخال كلمة جديدة على المعجم عملا توحشيا . والبعض الآخر ، يؤكد أن القواعد الخاصة بفن (الدراما) قد حددت تحديدا نهائيا في سنة معينة . وأن العبقرية التي تحاول الآن تغيير أى شىء قد أخطأت لانها لم تولد قبل هذه السنة ، التي تمت فيها كل المناقشات الادبية عن الماضى ، والحاضر والمستقبل . واخيرا ، وفي علم ما وراء الطبيعة على الخصوص ، قدر البعض أنه من بعد « كونديلاك » ، لا يستطيع المرء أن يخطو خطوة جديدة من غير أن يضل ! »

موقف مدام دى ستال هذا هو موقف ثورى عام . فهذه هي الثورة التي تتمثل في وقوف الشخصية موقف آلاء أمام القوانين المتبعة التي يخضع ويندعن لها الناس .

كان حلم مدام دى ستال هو تحقيق فكرة «الادب الاوروبى» • هى تريد حفلة رقص جامعة ، تحمل فيها كل أمة (نوتتها) الخاصة • أو تجارة تبيع فيها كل أمة من انتاج غيرها • وهى تقول فى هذا الصدد ما يلى :

« يجب على الامم أن تستخدم المرشدين ؛ فتبعث هذه بمرشديها الى تلك • وكل الامم تكون على خطأ عظيم اذا حجبت الانوار والاضواء التى تستطيع أن تقرضها لغيرها • يوجد هناك بعض الاشياء الجوهرية التى تفرق بين شعب وشعب : الجو : ومناظر الطبيعة ؛ واللغة، ولون الحكومة، واخيرا على الاخص الحوادث التاريخية الخاصة بكل أمة • وكان من جراء هذه الفروقات ان تعذر على أى رجل - مهما كان من العباقرة - أن يتكهن بما يجول فى عقل زميله الذى يعيش على تربة غير تربته، والذى يستنشق هواء غير هوائه » •

ومدام دى ستال تحض كل شعب من هذه الشعوب على جمع افكار وآراء الشعوب الاخرى • وتقول أنه اذا أدت كل دولة هذا العمل أصبحت الضيافة مصدر ثروة فكرية لمن يلبىها وبذلك وحده يقضى على الحالة الشاذة التى وصفناها •

كانت هذه النصيحة حسنة وعملية فى نفس الوقت • فقد أصبحت التيارات الادبية الهامة للقرن التاسع عشر هى تيارات الادب الاوروبى • وبذلك تحقق حلم مدام دى ستال ، وخرج من الظلام الى النور •

فیکتوریہ

(۱۸۸۵ - ۱۸۰۲)

نقاط البحث

- ♦ لوحة حياته ♦
- ♦ مؤلفاته الشعرية ♦
- ♦ هيغو والمذهب الابتداعي (الرومانتزم) ♦
- ♦ فيكتور هيغو قبل سنة ١٨٥٠ ♦
- ♦ هيغو بعد سنة ١٨٥٠ ♦

فيكتور هيجو من أزهار الشعر اليانعة التي
أشرقت وتفتحت في القرن الماضي . وكان تفتح
هذه الزهرة الخالدة من أكبر الاحداث التي رآها
هذا القرن المدفون في قبر الزمن . لقد كانت
أشعاره جميلة جذابة قوية .. كانت كما قال
بايرون يصف قريبتة مرجريت باركر : « كأنها
صنعت من قوس قزح .. كلها جمال وفتنة » .

لوحة حياته :

فيكتور هيجو هو ابن الجنرال هيجو . ولد في « بسانسون . Besançon »
سنة ١٨٠٢ . ولما كان أبوه - بحكم منصبه العسكري - يتنقل ولا يستقر ،
فقد تبعه ابنه الى ايطاليا واسبانيا . وهناك - في أسبانيا - ابتدأت
حياته الدراسية ، فقد التحق والده بمدرسة الرهبان بمديرد . وبعد
مدة قصيرة رجع الى وطنه ، وعاش في العاصمة مع أمه في منزلها الجميل
الذي ورد ذكره في أشعاره .

شعر هيجو وهو في ربيع حياته أن القدر قد أعده لعمل شيء
عظيم . فأخذ ينتظر ، ويؤهل نفسه ليجعلها على أتم الاستعداد لمواجهة
ما سيتمخض عنه المستقبل الغامض . وأخيرا فتح له القدر كتاب حياته ،
فقرأ هيجو فيه أنه سوف يعيش للفن والادب والشعر .

أصبح اسم هيجو وشعره على كل لسان . ولقد كرم الملك لويس
الثامن عشر الادب في شخصه بأن ربط له معاشا سنويا . فكرر هيجو
في الزواج وكان ذلك بعد ظهور « أغانيه » بمدة قصيرة وفعلا تزوج وهو
لا يزال شابا يافعا . لم تكن الاحوال السياسية في فرنسا هادئة أو
مستقرة ، بل كان مرسل السياسة يغلي ويفور . فنفي هيجو مع من نفى
الى خارج فرنسا في ٢ ديسمبر سنة ١٨٤٨ وهنا تحول عن مذهبه
السياسي الاول وأصبح من أنصار الجمهورية ، واعتنق المبادئ
الديمقراطية سنة ١٨٥٠ . كان هيجو في أول الامر من المجندين
للملكية ، ولكنه سرعان ما نبذ هذا المذهب وأندرج في صفك الاحرار .
وفي ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ عاد هيجو الى فرنسا وعاش فيها هادئا حتى
وافته منيته سنة ١٨٨٥ . لقد كان موكب الجنائزة من الاحداث التي
تكلم عنها أهل فرنسا طويلا . فقد تجلى فيه حب وتبجيل الشعب
الفرنسي بأسره للراحل الفاني ، وأدبه الخالد !

مؤلفاته الشعرية :

Les Odes.

Les Orientales.

الاغاني سنة ١٨٢٢

الشرقيات سنة ١٨٢٩

أوراق الخريف سنة ١٨٣١ Les Feuilles d'automne.
 أغاني الشفق سنة ١٨٣٥ Les Chants Du Crepuscule.
 الاصوات الداخلية سنة ١٨٣٧ Les voix interieures
 الاشعة والظلال سنة ١٨٤٠ Les rayons et les ombres .
 وفي المدة المحصورة بين سنتي ١٨٦٥ ، سنة ١٨٨٣ أخرج هيجو
 هذه المجموعات الثلاث :

أغاني الطرق والبغايا سنة ١٨٦٥
 Les chants Des rues et des Bols
 السنة المهولة . . سنة ١٨٧٢ L'annee Terrible .

ومجموعتان جديدتان من « قصة العصور » (١٨٧٧ - ١٨٨٣) .
 ثم أخرج كتابه
 L'art d'etre grand pere .

وأخيرا رياح العقل الرابع . . Les Quatre vents de l'esprit

هيجو والمذهب الابتداعي (الرومانتزم) :

إذا كانت الحرب السبعينية التي نشبت بين فرنسا وألمانيا ، قد
 اعتبرت من وجهة نظر التاريخ السياسي نهائية مرحلة زمنية وبداية
 أخرى ، فإن هذا الحدث التاريخي الفاصل بين المرحلتين لا يظهر بمثل
 هذا الوضوح والجلاء في تاريخ الادب الفرنسي .
 ويمكن تحليل هذه الظاهرة بقولنا ان حرب السبعين كانت
 عسكرية أكثر منها اقتصادية ومن طبيعة هذا اللون من الحروب أن
 تقتصر فئة واحدة من طبقات الامة في خوض غمارها دون الفئات الأخرى ،
 ونقصد بهذه الفئة رجال الحرب المسئولين . ولكن هذا لا يمنع من ظهور
 بعض الكتاب والادباء الذين يخوضون الحرب بالسنتهم وأقلامهم . وهذا
 ما حدث فعلا في فرنسا ابان حربها مع غريمته ولكن طابع الادب العام
 لم يكن هو الطابع الحربي ، لأن معظم أدباء فرنسا تحرروا مما يمكن أن
 نسميه « أدب الحرب » .

ولادة مذهب الرومانتزم :

كان من نتائج حركة الاصلاح الشاملة التي قامت بها ملكية يولية
 ان ولد مذهب جديد في عالم الادب هو مذهب الرومانتزم أو الادب
 الابتداعي وقد استمرت حركة الاصلاح هذه حتى شاهدة انتصار هذا
 المذهب وشيوعه . ضرب هذا المذهب الفتى ضربه القاصمة ، وقلب
 أوضاع الادب « الكلاسيكي » رأسا على عقب وأحدث ما أحدثته الثورة
 الفرنسية الكبرى من انقلاب عظيم في سياسة فرنسا التقليدية .

الخصوم والاتباع :

ثم جاءت الامبراطورية الثانية وظهر في خلال حكمها خصوم المذهب

الجديد كان بود ليرورينان وفلوبير تختلف أمزجتهم الادبية كل الاختلاف، ولكنهم شعروا بخطورة هذا المذهب الوليد ، فتعاونوا لايقاف تيسار « الحركة الرومانتزية » الجارف وكأن القدر هو الآخر كان في صف الخصوم ، فما أن سقطت هذه الامبراطورية حتى اتفق ان أفلت نجوم كثير من الادباء الذين يمثلون حركة الادب الابتداعي ومنهم لامرتين شاعر الحب والجمال ، وسانت بف الذي توفي سنة ١٨٦٩ وديماس مريميه توفي سنة ١٨٧٠ ، وجوتيه توفي سنة ١٨٧٢ .

وهكذا شاعت المصادفات العجيبة أن يختار الجيل الجديد في الحياة الادبية سنة ١٨٧١ زعماء الادب والفن من أعداء مذهب الرومانتزم . وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل كان للحسب السبعينية أى تأثير في القضاء على هذا المذهب ؟ الواقع أن الحرب ، بل والهزيمة نفسها لم تفقده شيئاً من نوزائته الفنية ، بل هي المصادفات وحدها التي عجلت بالقضاء عليه .

صحوة ما قبل الموت . . فيكتور هيجو :

كانت حاجة هذا المذهب القصوى - لمنعه من الاحتضار السريع - هي تصفية عناصره المتشعبة المتشابكة - ان صبح هذا التعبير - واتمام ما بدأه رجاله العظام .

بعد عملية التصفية هذه قوى المذهب بعض الشيء حتى نجد أتباعه قد أطلقوا من جديد البخور في معابده وهياكله ، وأخذوا يقدسون آلهته واستمروا على حالتهم هذه حتى آخر أيامه .

من هذه المقدمة القصيرة يمكننا أن نعلل انتصار فيكتور هيجو بعد سنة ١٨٧٠ بأنه كان كانتصار فولتير في أواخر حياته الادبية لا يرجع سببه الى العنصر أو الروح الادبية وحدها بل مرجعه كذلك الى شخصية الشاعر نفسه . . ذلك الشاعر الذي جسّد المقاومة التي لا يمكن قهرها . فلما رجع الى فرنسا أحاطته هالة بطوليته أخذت تقذفه من نصر الى نصر، وأنزلته أكبر منزلة في نفوس معاصريه .

أما تأثيره الحقيقي على النفوس فيرجع الى اعجاب الشعب بعبقريته ، وبطريقة ترتيله وانشاده في المناسبات الرسمية والوطنية . وكذلك لوصفه المهول لفترة من تاريخ فرنسا مضت وأصبحت في ذمة التاريخ . وهكذا ترجع منزلته الى هذه العناصر أكثر مما ترجع الى اعجاب الناس بفتوحاته الشعرية الجديدة في اسفاره الكثيرة .

بلغ هيجو في كثير من كتبه مثل « التأملات » و « قصة العصور » الذروة في شعره الغنائي ، وشعره الحماسي ، وشعره الهجائي ؛ على الرغم من أن قصائده في أواخر سني حياته كان محسورها نفس المواضيع ولكن كانت له نغمة خاصة به يجدها باستمرار فتضفي على كتاباته ألواناً من السحر والعدوبة . وكذلك تمتاز بعض كتبه كما سنبين بعد بالتفصيل - بعنصر جديد هو عنصر الانانية الذي تفشى فيها بأشع الصور وأقبحها فظهرت من جراء ذلك الكثير من الحوادث الطفولية حتى سمي الادب في

ذلك العهد « الجد العتيق » أو لون من ألوان التنجيم والتخمين وهذه الظاهرة نجدها واضحة في الاجزاء الاخيرة من « قصة العصور » ..

ولكننا نرى هيجو مع مر الاعوام تتسع دائرة تخيلاته ، وتنبسط قواعد تفكيره ويتجه بكل كتاباته في طريق النور نحو هدف معين .. الانسانية . ولقد كانت روح كتابته ساذجة املتها عليه الظروف الدينية . فهو يعتقد ان سلطة البابا أو الحبر الاعظم تقوم دعائمها على سلسلة متصلة الحلقات من الاعمال التي تذهل رجل الشعب ببساطتها وسذاجتها . هو يمجّد الانسانية في كل ما يكتب فنراه مثلاً يصف آلام الموت فيبدع في الوصف ، ويهاجم كل مسئول عن قصل الرقاب البشرية من ملوك وقساوسة وغيرهم . وبمعنى آخر هو يصف البؤس بكل ألوانه ويرجع أسبابه الى أعداء بذاتهم . وهو اذا فتح على نفسه باب المناقشة في هذا الموضوع فاض بيانه وجرف أمامه كل شيء . وكان عادة يضمن هذه المناقشات الكثير من الكتابات والتلميحات ذات المغزى في الحوادث المعاصرة له . وهو بكتابته في هذا الموضوع بالذات قد أخرج للناس معجماً لمفردات عظيمة القيمة .

أما هيجو القصصي فيطير مع الخيال الى أودية مجهولة لاتعرف الحقيقة ولا حتى احتمال الصدق . هذا الجو الخيالي البعيد كل البعد عن الواقع هو الجو الذي يعيش فيه أبطال هيجو . في هذا الجو تتشابه الاصوات البشرية وأصوات الطبيعة من دمدمة البحر الى عويل الرياح .

ولكننا نجد هيجو - رغم كل ذلك - قد حافظ في دخيلته ، وفي صميم انتاجه ، بعناصر اعجاز ؛ فتحت نظرتة الفاحصة .. نجد الاشياء تنتعش ويدب فيها الهياج ، فتفصح له عن نفسها وترتسم في مخيلته ، حتى اذا وصلت لعقله لقحته بثمرة طيبة من الصور والاسـتعارات والمجازات والتشبيهات ، فيصوغها في اطار معجز فكه ، ولكنه لا يخلو من التعقيد .

احتضار المذهب .. لوكونت دي ليسل :

سحر شباب الشعراء بهيجو وعدوه أماما لهم وزعيما ومثلاً يقتدى به ، الا لوكونت دي ليسل الذي نصب نفسه محارباً لهيجو ومذهبه تلقى لوكونت دروسه الفنية من شعراء أكسبتهم القراءة والتفكير نزعة فكرية خالصة من شعوائب التأثير والتقليد . فهل من منهلهم .. من بحيرة الادب الرائق الصافي . وهكذا غرست في نفسه مبادئهم التي تتلخص في عدم الخضوع لما يسمى بالمبادئ الثابتة الجامدة التي لا تتغير . قال لوكونت دي ليسل عن مذهب الرومانتزم : « فن قديسم مركب ومعقد .. هو مهزلة وهاجة الاطار ولكنها فارغة خاوية .. » وقال ايضاً : « نحن قوم علماء فواجبنا الاول يدعونا الى تقريب الفن والعلم أو مزجهما اذا استطعنا الى ذلك سبيلاً » . ثم قدم للقراء شعره الحديث، وتعهد أن يحطم فيه سلاسل الشعر الغنائي (الرومانتزمي) لانداده من الشعراء . قال لوكونت .. « ان زمننا الحالي لا يبيح للشاعر غير

الصمت ، أو القضاء على طبيعته الفنية لفائدة الصياغة والقيود الشعرية .
ثم استطرد فقال : « ومن أجل هذا تراني أبغض زمني وأمقته ! » .

كان من نتيجة هذه التصريحات الصارخة ان طارت شهرة لوكونت
بوزاع اسمه وأصبح يتمتع بمركز ملحوظ ، وقوة لا يستهان بها وجهها
ضد جماعة (الرومانتزم) فأخرجوه من دائرتهم .

ينحصر انتاج دي ليسل الحيوى فى ثلاث مجلدات صغيرة . ولكن
هذا الانتاج الضئيل أتاح له الفرصة الذهبية التى كان ينتظرها لمواصلة
كفاحه . لقد فتح له هذا الانتاج أبواب الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٨٧
وبذلك تربع على العرش الذى كان يحتله فيكتور هيجو من قبل .

كلمة أخيرة !

لم يكن كل أنصار مذهب الرومانتزم يحتقرون التجديد وينفرو
منه . بل نجد منهم من حارب بعض أوضاعه كتيوفيل جونييه المشال
الشاعر الذى تعالى بالفن ودفع عبادة الاوضاع والقيود الشعرية دفعه
تقرب من دفعة لوكونت دي ليسل نفسه وبأنفيل الذى حفر حفرة واسعة
والقى فيها بهذا اللون من الشعر المقيد . كما ظهر منهم من أعطى للمعنى
أوفر نصيب من عنايته ، وقلل من قيمة صيد القوافى والتقيد الجامد
بأوزان الشعر المحدودة .

ولقد استفاد الشعراء من هذا الدرس ، وأخذوا يتحولون عن
هيجو بعد اخلاصهم الاغنى له ، وينظرون لزعماء الجيل السابق نظرة
تحفظ . وهكذا تحول عطفهم وثقتهم الى لوكونت دي ليسل الزعيم
الجديد الذى شن الحرب باسمهم على كل أوضاع وعناصر المذهب
الابتداعى .

فيكتور هيجو قبل سنة ١٨٥٠ :

كان لامتريين فى ذلك الوقت قد أخرج خير انتاجه ، أما فينى فلم
يستطع أن يكون لنفسه مدرسة شعرية يرأسها وتنتسب اليه على مر
العصور . أما هيجو فكان يتمتع بكل ما يساعد الأديب الفنان على القيام
بمثل هذا الدور العظيم . لقد كان يتمتع بالقدرة الفائقة والارادة الجبارة
ومن المعروف أن المرء اذا تمتع بمثل هاتين القوتين ففي مقدوره أن يأتى
بكل الاعمال ! لقد كانت كبرياؤه فى السماء ولذلك استطاع أن يفرض
عبقريته على معاصريه ، ويجعلهم يحبونها ويجلونها . كان هيجو أقل
حساسية من لامتريين وأضعف تفكيراً من فينى . ولكنه كان خصب
القريحة قويها ، دائم الانتاج والابتداع . ذلك الانتاج الذى كان ينهال
كأنصاعة على الجمهور وعلى خصوم الشاعر المغرورين .

يستطيع المؤرخ أن يعد انتاج هيجو - اذا قارنه بشعر لامتريين
الحزين الهادى ، وفلسفة فينى الشعرية - الانتاج الصحيح الذى يعبر
خير تعبير أو يمثل أحسن تمثيل الادب (الرومانتيكى) الفرنسى . بدأ

هيجو بإنشاء قوالب جديدة لشعره وأخذ يلون هذه القوالب بريشته الفنية الخاصة . حتى إذا فرغ من ذلك أخذ يملأ هذه القوالب بأشعار تفيض بشتى ألوان الاحساسات وهكذا أصبحت أشعاره هذه . . تلك الاشعار المطربة الرنانة ، تشع هذه الاحساسات وتقذفها فى نفس القارىء .

أنشأ فيكتور هيجو سنة ١٨٨٢ عالما جديدا . لقد خلق (شرقا) جديدا وهميا . وذلك لأنه لم ير فى طفولته الا اسبانيا فقط . ولكنه انتفع - كما يفعل دائما - بالعناصر التى رآها آنذاك . انتفع بالعنصر الادبى الاسباني ، وبالحوادث السياسية المعاصرة لحرب الاستقلال اليونانية . ولقد جاءت شوقياته « كأغانيه » نتيجة لوجيه الذاتى واحساساته الفريدة العميقة . ويرجع نجاح هذا الكتاب الى صوره الحية الناطقة ، ونغمات شعره المجلجلة المطربة .

أعلن هيجو فى نهاية كتابه عن شعر جديد يتميز بذاتيته المطلقة . وكانت السنة فى ذلك الوقت تحتضر وتلفظ أنفاسها الاخيرة فى شهر نوفمبر ، ذلك الشهر الذى تتساقط فيه . . أوراق الخريف !

أخرج هيجو ديوانه الجديد « أوراق الخريف » سنة ١٨٣١ وهذا الديوان يحوى من غير شك خير المقطوعات التى تتصل مباشرة بعواطف الشاعر واحساساته وكانت هذه الاحساسات هى احساسات طبيعة سليمة قوية . . طبيعة هادئة تحوى بعض العناصر مثل : الهوس الشعرى السقيم ، والعواطف المجلجلة الرنانة ، والقلق المؤلم . كان الشاعر يتكلم بطلاقة غريبة فيرسل شعره كالنهر الذى يتدفق بشدة الشلال الفتى . وفى هذا الكتاب يظهر بوضوح وجلاء حب هيجو للاطفال . فالاطفال عنده هم مدار وعماد ادراكه وحبه العاطفى للعائلة . هو يتكلم عن والده وعن نفسه بحنان وعذوبة ، وبرقة أخاذة تثير كوامن النفوس . وكانت هذه العواطف اللينة الهادئة كثيرا ما تخفف وتلطف من عسودة الشعر الى العنصر الكلاسيكى . من الواضح أن الشعور الذى تفيض به نفس هيجو الدقيقة التنسيق القوية الثائرة غير كاف وحده أن ينتج هذا الشعر وإن انتاجه نفسه لا يكفى ملء هذه القوالب الكثيرة التى يخرجها الخيال باستمرار ومن غير انقطاع . كان الشاعر يترك نفسه على سجيتهما تتحدث بما تريد ، ولكنه كان لا يترك عاطفته تقود هذا الحديث الى حيث تريد . ولهذا ظهر فى كتابه « أوراق الخريف » العنصر الحماسى الذى يبعد عن تمثيل الذاتية الشخصية ويقترب من شعر الطبيعة العام . لقد كان لشعر هيجو مبدأ قوى يجلب فى كل أرجاء فرنسا ثم يعود فينعكس على الشعر نفسه : فالشاعر كان يخص الحوادث البارزة لعصره بنصيب وافر من شعره ، وكان يجمع عناصر موضوعاتها من الصحف والرأى العام . وهكذا ارتدى فيكتور هيجو رداء الواقع !

نابوليون هذا الاله الذى ستكون أنت كاهنه !

بذل هيجو أقصى ما فى وسعه ليمسكون المعبر الصحيح عن آمال عصره والناطق بلسان أهل فرنسا جميعهم . فكان يدرس بدقة مشاكل

هذا القرن ويحاول أن ينفذ الى مسائله الكبرى من خلال طبقة الهـواء السميكة التى تغلفها وتحجبها عن الظهور . ولقد اصطنع فى معالجته لهذه المسائل والمشاكل شتى أنواع المجازات والاستعارات أو الكنايات التى تسبب للقارئ التخدير والدوخان ولقد جرب هذا اللون من التعبير فى شعره ولكنه لم ينجح الا فى بعض المقطوعات التى توخى فيها المغالاة والتفخيم لكى يعلمنا معنى الشفقة والرحمة ! وفى نفس الوقت كان يدرس بعض الموضوعات الغريبة لما وراء الطبيعة : لقد ترك ظل آسيا وأخذ يعالج الحقيقة القريبة . ولهذا أعطانا عدة لوحات باريسية رسمتها ريشته من شواطئ انهار فرنسا عن البحر وغروب الشمس وأقولها . وهو بعمله هذا قد بين المنفعة التى استخرجها من الطبيعة واستخدمها فى التعبير الرمزي عن الفكرة .

انتهى كتاب « أوراق الخريف » وقد وعدنا الشاعر بلون جديد من الشعر هو الشعر الهجائي . ولقد حقق هذا الوعد فى أول قسم من ديوانه « أغاني الشفق » الذى طالع القراء سنة ١٨٣٥ أما الموضوعات التى عالجها هيجو فى هذا الكتاب فهى : حفلة رقص فى فندق دى فيل - الانتحار - قبر نابوليون الاول ونابوليون الثانى - انتخابات المجالس النيابية وغيرها . وجه الشاعر نفسه الثائرة . المضطربة الى هذه الموضوعات وكان فى ذلك الوقت نصف صحافى ونصف منجم اذا صح هذا التعبير فحاول جهده أن ينقد ويحكم أو يتنبأ ويلعن .

أما الجزء الثانى من هذه المجموعة الشعرية الجديدة فيقدم للقارئ لونا طريفا من الاشعار تقل فيها الغرابة وتكثر عواطف الحب الحنونة . ولكن لا يوجد هناك عواطف عميقة أو مبتدعة بل كل ما يجده القارئ لا يتعدى العواطف العادية المصبوغة فى قالب شعري يشيع الطرب والموسيقى : وأسلوب رائع جميل يزيد من نورية الشعر .

مزج فيكتور هيجو فى كتابه الرابع « الاصوات الداخلية » كل الالهامات والعواطف التى وردت فى كتابيه السابقين . فنحن نجد فيه : تأملات عن أعمال اليوم ، ونداء لطيف لعهد الطفولة الاول ، ودروس تكاد تكون فارغة مبتذلة للابيقوريين والاغنياء ، ولوحات وصفية دقيقة غريبة ، وأخيرا يبسط هيجو ما يراه صالحا لعلاج شرور العصر . وفى هذا الكتاب يظهر الانتاج الرمزي الاول لهيجو « البقرة » . وليس عمله هنا يشبه عملا فنيا ، بل هو لوحة رائعة يقدمها لنا هيجو . . لوحة تكفى نفسها بنفسها لما تحتويه من عنصر ذاتى خالص ولقد استطاع الشاعر أن يفهم القارئ خلال لوحته هذه شيئا من فلسفته الخاصة .

وفى سنة ١٨٤٠ ظهر كتابه « الاشعة والظلال » وهو يقدم لنا فيه نفس عملية المزج أو الخلط التى شاهدناها فى المجموعة الشعرية للكتاب السابق . ولكن هذه المجموعة الجديدة تجعلنا نتقهقر الى الوراء عدة خطوات . . نتقهقر حتى نصل الى « الشرقيات » أو الى « الاغانى » . هذا فيما يختص ببعض القصائد ، أما بقية القصائد فتجعلنا نستشعر ونحس بالعواطف والوجدانات البشرية التى تظهر فى قصته الخالدة « البؤساء » .

وذلك لأن الشاعر يحس هنا أكثر من أى وقت مضى ، إنه النجم الذى يفود الشعوب نحو المستقبل . ولهذا نراه يضع نفسه موضع الواعظ الهادى ، الذى يبصر شعبه بحوادث اليوم وحكمتها ، سوف يرى القارىء فيكتور هيجو فى هذا الكتاب وقد ارتدى لباس الاخلاقى المتزمت أو الكاهن الذى ينتقد بمرارة وشدة دنايا هذا العالم الفانى .

صمت الشاعر بعد سنة ١٨٤٠ ولم يعد يسمع لذلك الطائر الغرد غناء فى دوحة الشعر ذات الافنان الباسقة . ولقد استمر هذا الصمت ١٣ سنة كاملة لأن نفس الشاعر كانت مسرحا لعواطف مختلفة متضاربة . فهو متشكك فى الالهام وفى سيادة الصنعة الشعرية ، وفى حقيقة الاحساسات التى تختلج فى قلبه وتكاد تمزق أضلاعه . لقد بذل جهده ليكون السيد الاول فى حلبة الشعر . ولكنه اكتشف فجأة انه كان فى تلك الحقبة من حياته لا يزال يتحسس طريقه ويبحث عن صوته ! هو لا يتمتع الى الآن « بصوت الشعب » ولم يصل بعد الى ملء شعره بتيارات عصره الكبيرة . لقد تحول عن الملكية وانضم تحت لواء حزب الاحرار ، ولكنه رغم ذلك بقى بعيدا عن موجة الديموقراطية التى غمرت فرنسا سنة ١٨٣٠ ولهذا بقيت غرائزه الانسانية متذبذبة مترددة ومشقة مبعثرة . وفى سنة ١٨٤٨ وفرنسا تحت الحكم الجمهورى نرى هيجو يميل الى اليمين . الى الامير لويس بوناپرت . وأخيرا وبعد مدة طويلة وصل هيجو الى تعشق الديموقراطية والجمهورية سنة ١٨٥٠ وبذلك قبض هذا الشاعر على منبع الالهام الذى كان فى أشد الحاجة اليه لتنشيط خياله واثارته من جديد . ذلك المنبع الذى سيجعل من فيكتور هيجو المعبود الشعبى لثلاثين سنة آتية .

يجب أن نلاحظ ان فيكتور هيجو قد ابان قبل سنة ١٨٥٠ شخصيته الرومانتيكية بوضوح فى القصص والتمثيلات ، وان هذا الوضوح لا نجده فى شعره قبل هذا التاريخ ففي القصة كان رومانتيكيا خالصا منذ ١٨١٣ حينما أخرج han d'islande المعاصرة « لاغانيه » الكلاسيكيه ثم أخرج بعد ذلك « نوتردام دي باريس » فكانت من القصص الخالدة فى عالم الادب الابتداعى . ومع ذلك فلم تكن القصة هى السبب فى ذبوع اسمه وابرار مواهبه . بل يرجع السبب فى ذلك الى شعره (الدراماتيكي) . ومن أجل ذلك يمكننا أن نقول انه من سنة ١٨٢٧ التى اتم فيها cromwell الى سنة ١٨٩٣ التى طبع فيها Les burgraves ، قد كرس أو استخدم الجهود القوية الشديدة لعبقريته . وأخيرا فى Le rhin سنة ١٨٤٢ يعطينا هيجو لوحة تشببه فى كثير من الوجوه لوحة « الشرقيات » فى هذه اللوحة نرى العواطف الجياشة التى تبعث عن الاحلام الشعرية ، والتقدير الصريح لقيم الاشياء والصور التى تنشأ عن تأثير مباشر من الطبيعة . لقد استخدم هيجو فى كل هذه الكتب ميزات الفنية وطبقها خير تطبيق : فكل ظواهر العالم الخارجى الكبرى - تاريخية وطبيعية قد أثرت وتأثرت بخيال هيجو الملتهب التأثير ، وأخذت تنتظم فى صور واسعة غريبة تتحلّى بألوان زاهية من الرموز والمجازات . بقيت لنا كلمة قصيرة. نقولها قبل أن نسدل الستار على حياة هيجو الفكرية قبل سنة ١٨٥٠ .

لقد اتمت عبقرية هيجو تفتحها واشراقها فى الوقت الذى كان فيه المذهب الواقعى يصفى ميراث المذهب الابتدائى .

* * *

هيجو بعد سنة ١٨٥٠ :

فيكتور هيجو من الشخصيات الادبية المعقدة نوعا ما . فبعض جوانب هذه الشخصية يناقض بعضها الآخر كما لاحظ الكثير من مؤرخى الأدب الفرنسى . فنحن نلاحظ مثلا أن بعض العناصر الخاصة التى تتكون منها هذه الشخصية بسيطة أو متوسطة بينما بعضها الآخر فيه شىء من التعقيد والتنافر .

كان هيجو شديد الغرور محبا للزهو والخيلاء شديد الشوق الى اعجاب الجمهور به وتقديرهم ، أو على الاصح تقديسهم لعبقريته . ولهذا نراه يشغل بصغائر الامور ليخلق حوله جوا يعبق بالعظمة ويفوح بالكبر لم يكن هيجو يخشى أو يهاب شيئا بل على العكس هو يتمتع بجرأة واسعة تدفعه دفعا الى أن يهاجم ويسخر ويهزأ بكل من تسوغ له نفسه جرح كبريائه أو خدش شخصيته من بعيد . لم يكن هذا الشاعر الكبير رغم سلوكه الراقى وآدابه العالية يحب الاجتماع لأنه لم يخلق لذلك اللون من الحياة . هو فنان كبير ، ولكنه فى نفس الوقت بورجوازى كبير : دائب العمل والتنظيم ، قد تطبع بطباع البورجوازية . أى أنه كان خشنا بعض الشىء وخاصة اذا تملكه الغضب أو اذا استفزه انسان . ولكن أهم جوانب هذه الشخصية جميعا هو الانانية . هذه الانانية المتسلطة التى شعر بها أصحابه وأعداءه على السواء ، وأحسوا بوطأتها عليه وعلى أنفسهم ، الانانية عند هيجو تتلخص فى كلمة « أنا » أى أنها انانية ممزوجة بالكبرياء .

لم يكن هيجو لنا : فهو حينما يتكلم عن الحب الذاتى نراه يمزجه بالزخارف اللفظية الصارخة ، وبذلك يبتعد تماما عن منبع العواطف الحقيقية . وهيجو يحب كثيرا وهو فى أعلى قمته الشعرية أن يرى حب المرأة « يقبع تحت قدميه كالكلب » .

هذا جانب من شخصية هيجو فى اطار الحياة العامة ، واليك جانب آخر - يناقض هذا الجانب كل المناقضة - وهو الجانب الذى يبين لنا هيجو وهو داخل المحيط العائلى . يمتاز شاعرنا الكبير باستعداد خاص يؤهله لوصف حوادث العائلة بدقة واعجاز ، وبقدرة فائقة على التعبير عن احساساته كوالد أو جد . فى هذا المقام وحده يتسرب اللين الى نفسه ويمتلك عليها كل شعابها لقد تكلم بنغمة مؤثرة عن البيت العائلى وعن حبه للاطفال فى كتابه « كيف تكون جدا » . وبين لنا أن وظيفة الجد هى كوظيفة الحبر أو القسيس كلها وداعه ولين وحنان . ولم يكن هذا الكتاب هو الوحيد الذى تغنى فيه هيجو بحبه للاطفال بل لقد سبق وأورد فى « أوراق الخريف » مقطوعات كثيرة عن الاطفال نظمها ببساطة أخاذة . وكان ذلك حينما فقد سنة ١٨٤٣ ابنته وصهره فى حادثة غرق بالقرب من « فيليكوير » .

لقد أطلعنا على يأسه ، وبسط لنا ذكرياته الشاسحة المحزنة «
وتوسلاته للخالق العادل الذى يؤمن به ويذكره فى كل لحظة من لحظات
حياته . كل ذلك يطالعنا فى كتابه العظيم « التأملات » ذلك الكتاب الذى
لا يمكن أن يرقى العمل الفنى فيه الى تلك الذروة التى بلغت بها عذوبة
العواطف وشدة الاخلاص فى ابرازها كما هى قوية مؤثرة أعظم التأثير .

ونرى انه من العدل كذلك ان نضيف ان (الحب الجمعى)
للانسانية وللتعساء والبؤساء قد ظهر بوضوح حقيقى عند فيكتور هيجو .
وذلك لأن هذا الحب يرتبط بنفس الشاعر التى لامست الحياة ملامسة
مباشرة ، وعرفت ما يقاسيه المرء فيها وكان من الطبيعى بعسد ذلك أن
نبت فى نفس الشاعر عاطفة جديدة . . كلية فمن المعروف أن الذى يحب
يجب أن يعطف على من يحب لانه يشعر بالآلامه فيتأثر بها ويحاول جهده
تخفيفها أو ازالتها اذا أمكنه ذلك . وهكذا نبعت فى نفس هيجو عاطفة
« الرحمة الاجتماعية » التى سبقت رده السياسية .

ولكن هذه العواطف والاحساسات بقيت مع ذلك ناقصة ومحددة
بعض الشيء لأنها كانت منقادة دائما الى وجهة معينة : هى تكبير وتوسيع
دائرة شخصية هيجو نفسه ويمتاز هيجو بظاهرة غريبة كان لها أكبر
الأثر فى سهولة اتصاله بالطبيعة وأخذ عنها مادتها التى صاغها فى كتبه
وأشعاره فحواسه دائما متفتحة متوترة على استعداد تام لاستقبال تأثيرات
الطبيعة المختلفة . ويزداد هذا التوتر فى حاسة النظر خاصة . فرويته
للأشياء هى رؤية بصرية لا تكاد توجد عند شاعر آخر غيره . فهيجو اذا
صوب نظره الى شيء فى العالم الخارجى يرى فى وقت واحد . الجزء
والكل ، وبمعنى آخر يرى التفاصيل والجملة . وهو علاوة على ذلك
شديد التأثر الى حد بعيد أمام الظلال والأضواء . ولقد ساعد ذلك على
تزويد شعره بالطباق ، ذلك العنصر الاساسى الذى نراه فى كثير من
قصائده وأغانيه .

لم يتصل هيجو بالطبيعة الخارجية التى تلقف منها كل القيم
برباط آخر غير رباط الحواس . ولذلك كانت لوحاته البسيطة عن
الطبيعة ومناظرها جميلة ولكنها نادرة ندرة ظاهرة فى إنتاجه . لقد
خلق هيجو من الطبيعة حانوتا واسعا يعرض فيه الصور واللوحات
المختلفة . وكان عقله يجول فى أرجاء هذا الحانوت ويمتزج بهذه الصور
ويستخلص منها تارة مادة لمواضيعه وتارة أخرى أردية لالباس الأفكار
والآراء . ويرجع السبب فى ذلك الى أن نفسه لم تتأثر تأثرا مستمرا
بالعالم الخارجى . وكذلك لأن هيجو كان اذا وصلته بعض التأثيرات من
العالم الخارجى تكونت فى نفسه احساسات مختلفة حول هذه الاحساسات
الى مجازات واستعارات ورموز تخضع لتصوره وادراكه الروحانى .

ولكن أى نوع من الذكاء يتمتع به فيكتور هيجو ؟ يجب أن نعترف
هنا أن شاعرنا الكبير غير قادر على تخفيف أو تليين أفكاره . فهو حينما
يمالج النقد نراه يطلق الكثير من الأفكار المتصلة المتصلة المتداخلة
بعضها فى بعض . أما اذا تصدى للموضوعات النظرية فلا بد أن يتورط

فى جملة من المتناقضات والآراء المتنافرة . فاذا تركنا طريقة الصياغة وانتقلنا الى مادة الافكار وقفنا على الحقائق الآتية : كانت أفكاره الأدبية مضطربة ثأره . أما أفكاره السياسية والفلسفية والاجتماعية أو بعبارة أخرى أفكاره الجمهورية ، واعتقاده بوجود الله وآراؤه فى الديموقراطية كانت كل هذه الافكار لا تغلو المرتبة الوسطى وهى تخلق من الجسدة والطرافه ، وقد يمازجها الاضراب والتداخل فى بعض الاحايين .

ولما كان هيجو غير قادر على التفكير الصحيح ، فقد تسربت الى نفسه ضرورة احترام التفكير واجلال المفكرين . لقد كان يصبو دائما الى الارتفاع والوصول الى قمتهم العالية ، ويتحرق شوقا الى الانضمام فى زميرتهم . أليس من واجب الشاعر أن يكون معلم الشعب وهادى الانسانية ؟ ولكن لا يجب أن نتعسف فى الحكم أو نجرى الى بعيد . فمن الصحيح أن أفكار هيجو لم تكن جديدة أو مبتدعة ، ولا رائقة أو صافية وذلك لأن هيجو من الشعراء وليس من الفلاسفة . فليس من عمله اذن أن يصب أفكاره فى قالب معجز ، بل يكفيه أن يحرك النفوس ويوقظ فيها التطلع والتشوف الى مسائل العصر الكبرى . يكفيه أن يحول الفكرة المجردة الى احساس أو عاطفة قوية فعالة ، يستطيع القارئ أن يحسها ويتأثر بها . ومن هنا جاءت قوة انتاج هيجو . . تلك القوة التى أثرت أكبر التأثير فى نفوس معاصريه . واذا كان انتاج هيجو ينقصه الافكار المجردة ، فان هذا النقص يعوض بعناصره الاخرى الفنية ، تلك العناصر التى تلقى فى نفوسنا ببعض آلام المجتمع الخاصة .

الله - الانسانية - الشر فى العالم - البؤس - الرذيلة - الواجب - التقدم - الرحمة . . هذه هى بعض الافكار الرئيسية التى لم يحسدها شاعرنا أو يبرهنها . ولكنها كانت فى انتاجه كالنواة التى تتجمع حولها احساساته وعواطفه . لقد اتعبت هذه الافكار عقله واجهدته لأنه لم يحاول تحليلها وتشريحها بل تركها على ما هى عليه ، غامضة ينبع جمالها من نفس غموضها . كانت هذه الافكار تتموج فى نفسه وتخرج لها توسلات وتراويل حنونة كلها حركة وامتلاء وسعة .

كان فيكتور هيجو لا يفكر الا بالصور . فالفكرة تتجمع لديه فى كلمة واحدة . فهو حينما يرى شيئا يتنبه خياله فتستيقظ الفكرة التى توسدت هذا الخيال مدة طويلة وتسرع الى عقله . وهكذا يتخلص الشاعر من مضايقة العمليات الادراكية المعروفة .

نستطيع أن نقول أن هيجو يمثل الانسانية القديمة . فآراؤه وأفكاره ثأرة مضطربة تعالج ألوف المسائل المعقدة والمشاكل الدقيقة . ولكنه رغم ذلك كان غير قادر على سلخ هذه الافكار من تجريداتها الأولية القديمة فاقتربت من دائرة الخرافات والتنجيم . ان ما انتجته العصور القديمة فى الاجيال التى سبقت التاريخ كره هيجو فى عصره كونه Comte ، و « داروين Darwin » . وهكذا أصبح كل احساس عنده يمتد ويستطيل ويصبح رمزا ، وكل رمز يتضخم وينتفخ ويصير خرافة . لم تكن عنده حاسية نفسية حادة أو متدربة ، ولذلك كان لا يمكنه أن

يرى الاشياء الغير قابلة للتجزئة : فالفقر الذى يقابله فى طريقه يصبح عنده هو الفقر بعينه . وقد ظهرت هذه الخاصية بوضوح فى «التأملات» ص ١١٨ .

لقد ظهرت خشونة هيجو وقوته فى كتابه Les chatiments ولكن هذه الخشونة وتلك القوة سرعان ما تتبخر أمام قوة الموضوع . بل يمكننا أن نقول أن صغائر المؤلف سرعان ما تنمحى أمام الروعة الأخاذة التى تطالعنا فى هذا الكتاب الانسانى . فالقارئ حينما يتصفح هذا السفر يخيل اليه أنه يسمع آناات قوية تطن فى أذنيه ، وتجلجل فى سمعه . يخيل اليه أنه يسمع صيحات الحق ضد القسوة وصرخات العدالة التى تريد أن تؤكد نفسها وتعلو على الاستعباد . يخيل اليه أن أذنه تلتقط آناات الضمير الذى جرحه الحاضر والذى يركن ويطمئن الى المستقبل . . . الى الخلود . ان أعظم المقطوعات جمالا فى هذا الكتاب هى تلك التى تبعد عن الذاتية المطلقة ، وتتفشى فيها الرموز المحيرة .

أما « قصة العصور » La legende des siecles فتنبع من مصدر غير ذاتى ولكنه خرافى الى حد بعيد . ولذلك نرى فيها ذلك الجموح المعقد فى المعانى والألفاظ .

لقد تكلم المؤرخون عن شعر الحماس فى سياق كلامهم عن « قصة العصور » . ولكن يجب أن نلاحظ هنا أن شعر الحماس الوارد فى هذا الكتاب يبعد تماما عن ذلك اللون الذى صيغت به الإلياذة أو الأوديسة . وإذا أردنا أن نقارنه بشعر حماسى آخر فلن نجد أمامنا الا « الكوميديا المقدسة » .

هناك فكرة فلسفية وأخرى اجتماعية فى كل مقطوعة شعرية من مقطوعات هذا الكتاب . وهاتان الفكرتان هما الدعامة التى يشيد عليها الشاعر هيكل كل مقطوعة . فهو يتكلم مثلا عن تأكيد وجود الله أو العدالة أو يشرح لنا حقد الملك أو القس . ثم يتم مقطوعته باستعراض للتاريخ والانسانية ويعتنى خاصة بعصورهما الرئيسية . وهكذا نجد بين أيدينا لوحة كبيرة رائعة تشرح لنا اعتقادات الشاعر الاخلاقية . ولكن هذه الاشعار الحماسية الرمزية هى فى الواقع لون من ألوان الخرافات وعنصر الحقيقة فيها سواء أكان متخيلا أو مرثيا قديما أو معاصرا ينتظم فى النهاية فى سلك الرؤى الفخمة الوهاجة .

كان هيجو يطمع دائما الى العظمة فانطبغت تلك العظمة فى كتبه وانعكست على كل صفحة من صفحاتها . وهكذا أصبحت مادة كتبه ضخمة كبيرة ولكنها تخلو من العمق والاعجاز .

لاحظ كل من أرخ لهيجو هذه الظاهرة وعندها من نقائصه الجوهرية . ونحن اذا صرفنا النظر عن هذه النقطة رأينا هيجو فنانا عظيما يعشق الفن ويقدسه ، ويثق بانتاجه وبنفسه . هو لم يتوخ دائما المنهج السليم : بل كان يفعل ما كان يريد .

وهذه الظاهرة ، ظاهرة سيادة العظمة على العمق ، تظهر فى كل

انتاجه • لننظر مثلا الى كتابه les chatiments أو حتى الى فهرس هذا الكتاب فسنبجد عجباً • لقد أكثر هيجو من (العناوين) في هذا الكتاب • لقد حاول وهو يعنونه ان يجعلنا نعتقد بأنه كان يسير على نظام مفهوم في ترتيب الموضوعات وتنسيقها • ولكننا سنلاحظ أن هذا النظام سيهرب ويختفى ونحن نقلب صفحات هذه المجموعة الشعرية • فلن نجد فيها مانسميه (بالنقد المنهجي) للنظام الاجتماعى والسياسى للامبراطورية ولكن لنترك هذه القواعد والصيغ التى يلصقها هيجو بكل باقة من باقات هذا الشعر كأنها (الماركة المسجلة) ولننظر الى الشعر نفسه • الشعر فى هذا الكتاب جميل الى أبعد حدود الجمال • ومما زاد فى هذا الجمال عملية المزج •• مزج الصيغ الشعرية الحماسية بالصيغ القصصية ، وكذلك العناصر المباشرة بالرموز العرضية وأخيرا اختلاف النغمات وتنوعها • كل ذلك كان من شأنه أن يبعد السأم والملل عن نفس القارىء •

الى هنا نكون قد انتهينا من دراسة فيكتور هيجو ، تلك الدراسة التى استخلصناها من مؤرخيه ومن أهم كتبه الشعرية • لقد رأينا فى كتبه : الشاعر العظيم ، والاخلاقي العظيم ، والانسانى العظيم ! رأينا من الرجال العظام الذين وصفهم هو بقوله
« الرجال العظام هم بناء عصرهم ! »

الان رينيه لساج

(١٧٤٧ - ١٦٦٨)

نقاط البحث

- ١ - لوحة حياته وتحليل شخصيته •
- ٢ - لساچ و « جيل بلا » •

إذا كان هناك حقاً ما يسمى بالعبقرية
وكانت هذه العبقرية تصيب بعض الأفراد الذين
يعيشون تحت الشمس لافى أى مكان آخر ، فمن
هؤلاء آلان لساج .

لوحة حياته وتحليل شخصيته :

إذا أردنا أن نلخص حياة رينيه لساج فى كلمتين اثنتين قلنا انه
« يعمل ليعيش » .

ولد لساج فى (سارزو) وهى بلدة صغيرة فى جزيرة (ديوس) فى
الثامن من شهر مايو سنة ١٦٦٨ . وكان أبوه يدعى الاستاذ (كلود) ،
ويعمل قاضياً . أما أمه فهى السيدة (جان برينيكا) الزوجة المشالية والام
الحنون .

عندما بلغ الآن السن التى تؤهله لاكتساب العلم ، أدخله أبوه
كلية (فان) التى يديرها ويرأسها الاستاذ (بروشار) عضو الجمعية
اليسوعية وفى سنة ١٦٧٧ ولساج على أعتاب السنة العاشرة من عمره
لطمه القدر لطمته الاولى فقد اختطف الموت أمه فى ١١ سبتمبر من هذه
السنة . فى ذلك اليوم المشهود رأى أهل سارزو مشهداً مؤثراً ، هو
مشهد موكب الجنازة المهيّب ، يتقدمه النعش ويتبعه الاب الوقور والابن
الطفل ، وأصدقاء العائلة قاصدين بيعة تلك المدينة الصغيرة للصلاة على
جثمان الام الطيبة تمهيداً لدفنه . وبعد أن تمت مراسيم الدفن رجّع
الطفل - وهو بملابس الحداد - الى فان .

ويعود القدر - بعد خمس سنوات - فيتذكر لساج الطفل الحزين
ويلطمه لطمته الثانية . وتتمثل هذه اللطمة القاسية فى موت الاستاذ
كلود ، وهنا يتكرر الفصل الاول من المأساة ، فنرى لساج يذهب الى بيعة
سارزو ، ولكنه فى هذه المرة يسير بمفرده وقد شخص ببصره الى الارض
حتى اذا وصل أعد كل شيء ، ومهد للقاء الزوج والزوجة أو الأم والأب ،
فذلك اللقاء الخالد .. فى العالم الآخر .

أخذت ذكريات فان الشاحبة تلاحق بطلنا ، وتأخذ بتلابيبه ، ولا
تترك له ساعة واحدة يخلو فيها الى نفسه فيشعر بالهدوء والراحة ، لقد
كانت دائماً تذكره بالراحلين الطيبين ، فيتلوى قلبه بالآلم الصامت ،
وتطل الدموع الحبيسة من عينيه وهكذا لم يستطع العيش فى هذه البلدة
الصغيرة الهادئة فتركها وفر منها الى باريس عاصمة وطنه ، كان الوالد
المتوفى قد ترك لابنه الوحيد ثروة لا بأس بها لتعاونه على شق طريقه فى
الحياة ولكن القدر الذى ناصبه العداء حتى هذه المرحلة من حياته لم يشأ
أن يترك له هذه الثروة ، ولذلك نرى مجلس الادارة المختص بحيل هذه
الثروة (لجبريل لساج) شقيق المتوفى .

على هذه الحال حضر لساج الى عاصمة فرنسا ، لينهل العلم والفن من جامعتها الشهيرة . ولذلك سرعان ما ينكب على دراسة الحقوق والفلسفة بجد واجتهاد وبعزيمة قوية صلبة ، في هذه المدينة الكبيرة الصاخبة الغامضة نفتقد لساج ولا نستطيع الا أن نتخيله : فهو لا يهتم الا بمعضلات القوانين الفرنسية وفتاويها ، والقضايا الفلسفية واصطلاحاتها . كان لساج من هؤلاء الاشخاص الحذرين الذين لا يتوقعون من الحياة الخير الخالص بل الخير الممزوج بالشر . وكان نشط الجسم سريع الحركة له هيئة محبوبة جذابة حتى لقد راحت حوله الاشاعات فجعلته موضع اعجاب من نساء فرنسا الملحوظات كما رويت عنه غزليات كثيرة وصورته في ثياب الفارس الجميل الذي يصول ويجول في حلبة العشق واللهو . هذا هو ماترويه الاشاعات ، ولكننا لانعلم - بوجه التحقيق - شيئاً عن تلك الحقبة من حياته الدراسية ، ومما يزيد هذه الفترة من حياته غموضاً أن لساج نفسه لم يدون عن أحداثها شيئاً ينير أمام الباحث طريق البحث والتقصي بعم ، لقد تكلمت الاشاعات ، وذاعت فثبتت هذه المغامرات في الذاكرة ولكن هل تستمد هذه الاشاعات أصولها من الحقيقة الواقعة ؟

هذا مانجهله ، أو مالا نعرفه على وجهه الصحيح لسببين : الاول أن من عادة الاشاعات التهويل ، والبأس الحقيقة ثوب الخيال . والثاني أن كل من كان على شاكلة لساج - وهو من هؤلاء الذين لا يتذكرون الماضي وأحداثه ولا يحاولون بعثه من قبره ليحدثهم بما طواه في أحشائه - لا يكتب مطلقاً ما يسمونه « الاعترافات » . ولهذا السبب يجب علينا الآن أن نسدل الستار على ذلك الفصل من « غرام المتنزهات العامة » لنرفعه مرة ثانية ، عن قصة غرام جديدة . . قصة غرام جدى ، تغلغل في نفسه واختلط بدمه ، وأثر فيه طيلة حياته .

ففي أثناء اقامته بشارع (فيوكولوميه) حيث كان راسين ، وشابل ولافونتين يندمجون في جماعه (بوالو) الادبية ، كان يقوم بزيارات متصلة منتظمة لجماعة من الطبقة الوسطى في المدينة ، هي أسرة متوسطة الحال تعيش في هذا الحى من أحياء العاصمة .

تمكنت أواصر الصداقة بين لساج ورب هذه الأسرة . وكان لساج لا يترك فرصة تمر الا ويزور الأسرة ويطيل المقام عندهم . فقد أحس أن قلبه قد شغف بمارى ابنة صديقه الجميلة المستقيمة ، ازدادت جذوة هذا الحب اشتعالاً على مر الايام في قلب العاشقين حتى وقف على أمره أهل مارى . أما بقية فصول هذه القصة فمن السهل سردها لبساطتها وشيوعها فقد حدث في ١٧ أغسطس سنة ١٦٩٤ أن حصل آلان على موافقة مطران باريس بشأن معافاته من اشهار زواجه من الآنسة مارى اليزابيث هوارد وهى ابنة (أندريه هوارد) أحد أبناء الطبقة الوسطى في باريس وأمها مارى كاولوس التى تعيش مع زوجها في (سانت بارثليمي) . وهكذا تم الزواج في ٢٨ سبتمبر من السنة نفسها وكانت مارى في الثانية والعشرين من عمرها أما آلان فكان في السابعة والعشرين وكان لساج في هذه الأونة يزاوول مهنة المحاماة ، ولكنه كان مجرداً من القضايا من جهة ، ومن الموارد المادية الخارجية من جهة أخرى بسبب عمه (جابريل) .

كانت بائنة ماري آلان هي شبابها ، وجمالها ، وفضيلتها . ففسد انحدرت من أصلاب أسرة متوسطة لايزيد دخلها على مصروفاتها . ولهذا اظلمت الحياة واكفهر وجهها لهذين الطفلين الفقيرين وأصبحا كشريرين مفقودين في مملكة «البورجوازيين» بين هذا الحضم البشري الهائل ، الذي يلبس اللباس الاسمر القاتم والذي انقرض أو كاد من محيط الحياة الفرنسية في أيامنا هذه كان صديق هذه العائلة المحدودة العدد ، الفقيرة الموارد هو (دانشيه) زميل لساج في الكلية . وكان دانشيه هنذا طيب القلب ، سليم السريرة رؤوف رحيم ، أكثر من زياراته للزوجين التعيسين وحاول جهده أن يخفف عنهما لوعة الحياة فكان يطيل المكث في منزلهما يحدثهما ويحدثانه وهكذا أحياه لانه أصبح قبس النور في حياتهما المظلمة المدهمة ، ولكن دانشيه كان هو الآخر محتاجا ومفتقرا للمال فاضطر الى قبول وظيفة استاذ في (شارتر) وسافر وخلفهما وراءه وحيدين بين أمواج الحياة الصاخبة .

وهنا تطالعنا فترة غموض ثانية في حياة لساج فالمعتقد أنه ذهب مع زوجه الى (فيتريه) حيث شغل منصب السكرتير لاحد كبار الملاك . . . ولكن من الثابت أن عودته لباريس كانت سنة ١٦٩٨ ، وانه اتخذ مسكنه بالقرب من بيعة (سانت سوبليس) التي تزوج فيها ، والتي عمد بين جدرانها في ٢٤ ابريل ابنه (جولز فرانسواز) .

ولقد وجد لساج في مسيو «ليون» - وهو قسيس طيب القلب من كنيسة (سانت مارتان دي شان) - معينا له وحاميا . فقد قدم له يد المساعدة في كثير من الاحوال ووالاه دائما بالتشجيع والنصح . وكان لهذا القسيس - فيما يظهر - بعض التأثير على أديبنا فقد جعله يعبر السنين ليكون قريبا منه .

وفي «سانت ايستاش» عمد لساج ابنه الثالث (فرانسوا انطوان) وتاريخ ذلك التعميد هو ٢٣ فبراير سنة ١٧٠٠ .

وبعد سنتين من هذا التاريخ رزق لساج بابنة جميلة . وهكذا أصبح باختصار رب أسرة عليه أن يعون زوجه وأبناءه الاربعة .

كانت كل ثروة لساج في رأسه ، فهي سنده الوحيد لاعالة زوجه وولده ولذلك نراه يعالج الكتابة منذ العام الاول لزواجه محاولا أن يخرج من محبرته الشرف أو الربح . فابتدأ بترجمة بعض الرسائل في بلاغة اللغة ، واستطاع أن يكون من دراساته وترجماته في هذا الموضوع مجلدا هزिला طبعه له صديقه القديم ، وزميله في الكلية وانشيه . ولكن هذا الكتاب لم يلفت النظر الى كاتبه وكان نصيبه الكساد في سوق الادب فأخذ لساج يفكر في طريقة أخرى ، ووسيلة جديدة توصله الى مايريد . وهنا يظهر الاب ليون على المسرح ويلعب دوره في ارشاد لساج ونصحه بنجاح . فاليه وحده يرجع الفضل في تعبيد الطريق وانا رته أمام الاديب الناشئ . فنراه يحض لساج على تعلم اللغة الاسبانية حتى يكون في مقدوره نقل روائع الادب الاسباني الفنيه الى اللغة الفرنسية ولقد نفذ المشروع بالفعل واستطاع لساج أن يترجم الى لغته القومية بعض المقطوعات من الادب

التراجيدى الاسباني : وأردفها بقصة واحدة ولكن النجاح لم يصادفه في هذه المحاولة كذلك .

وهكذا استصحبه الفشل ، ولازمه كظله ، حتى سنة ١٧٠٧ . ففي هذه السنة بدأ نجمه ينير في سماء الادب الفرنسى . فنراه يقدم قصتين هزليتين «لجماعة التمثيل الكوميدي» . الاولى وهى أكبرها حجما وعنوانها Doncesar ursin مترجمة عن الاسبانية وقد لقيت نجاحا كبيرا عند تمثيلها في البلاط . والثانية وعنوانها Crispin rival de son maitre ألفها لساج فجاءت تحفة فريدة في نوعها ، ولاقت نجاحا باهرا في باريس وفي هذه السنة طبع عند (باربين) قصته العظيمة : «الشيطان الأعرج» وهى قصة ذات اطار اسباني . ولكنها مع ذلك . وهذا هو المهم ، فرنسية في روحها وجوهرها وأسلوبها . هذه القصة عظيمة الشأن ، جليلة القدر من جميع نواحيها فقد دفعت شيخ كتاب فرنسا وفلاسفتها «أناتول فرانس» أن يقول عنها :

«ان كل من يستطيع القراءة يجب أن يقرأ قصة لساج «الشيطان الأعرج» ففي هذا الكتاب نجد طريقة مبتكرة في رسم الطبيعة الانسانية وعبقريّة فذة في تحليل العواطف التى تخالج نفس الكائن الحى في كل بقعة من بقاع هذه الارض .

وانه من العلامات المبشرة بالخير أن يستقبح هذا الكتاب قدماء النقاد فهم اذا قالوا انه لا يحوى شيئا جديدا وانه لا يعجبهم . فهو على العكس من ذلك عند القراء ، فريد معجب عند قراءته . ولقد لاقت الطبعة الثانية من هذا الكتاب نجاحا يفوق مالاقتته الطبعة الاولى ووجدت عائلة لساج بعض المال لتدبير شئونها المادية لمدة معينة . ولكن سرعان ما نقص هذا المال ، فتجدد بنقصانه نشاط لساج الفكرى .

فاخرج Turcaret وهى قطعة تمثيلية رائعة ، تعالج بعض مشاكل المجتمع . أما محور التمثيلية وجوهرها فهم رجال المال الذين يهاجمهم ديديرو في شدة وينقدهم في قسوة بالغة . ولقد نجحت هذه التمثيلية لطرافتها وجدتها وأصبحت تقرأ في معظم «الصالونات الادبية» ولقد أعربت السيدة «بوالون» عن رغبتها في سماع هذه القصة ، فلبى لساج طلبها ولكنه وصل الى قصرها متأخرا ، فقابلته ببرود ، وفاهت ببعض كلمات عدها لساج جارحه . فما كان منه إلا أن قال : «سيدتي لقد ضيعت ساعتين من وقتك الثمين ، وأشعر أنه من الواجب على أن أعوضهما لك .. ولذلك فلن أقرأ قصتي ، ثم وضع مخطوطات القصة في جيبه وغادر المنزل .

رأت سنة ١٧١٥ حدثين عظيمين ، موت الملك لويس الرابع عشر ، وظهور قصة «جيل بلا» هذه الكوميديا ذات المائة فصل كما يسميها لافونتين . والتى تأخذ اطارها من الاخرى من اسبانيا ويغذيها رجال البلاط ، وأفراد الشعب العظماء ، وبجانبيهم المشعوذين والشحاذين .. كل منهم يلعب دوره بدقة ومهارة . ولكن موضوع هذه القصة وجوهرها هو «الرجل» الذى - فى صميمه - لا يتغير سواء أكان فى اسبانيا أو فى

فرثسا . فهنا كهناك ، نجد مظاهر العظمة والابهة تسدل ستارا كثيفا على البؤس والفقر .

لساج الآن فى السابعة والاربعين من عمره ، وقد زائناه يخرج ثلاث تحف أدبية خالدة : لقد حقق مايمكن أن نسميه «معجزة القصة» لقد أخرج من رأسه عالما جميلا جذابا ، صاغه صياغة فنية رائعة ، ولكن هل يكفيه هذا ؟ لا ! يجب أن يخلق عوالم أخرى ، ليستطيع هو أن يعيش مع أسرته فى العالم الارضى ، وهكذا نراه يعمل ، ويجد فى عمله . . يعمل ليل نهار لكى يخفى عن عينيه ذلك الشبح القبيح الشاحب . . شبح الفقر والعوز .

فيخرج فى سنة ١٧١٧ «رولاند العاشق» ، وفى سنة ١٧٢١ Guzman dallarache وفى سنة ١٧٣٢ «مغامرات مسيو روبير» ولقد كتب لساج معظم هذه الكتب بعد أن تقدمت به السن ، وكانت معظمها ترجمات وتصنيفات حتى اعتقد القراء أنه قد أعطى ما عنده ، وأنه عاجز بعد ذلك عن الابتكار . أما صحف النقد الادبية ، فقد أخذت تردد هذه النغمة بصيغ مختلفة أن لساج لا يكتب الا ليعيش من كتاباته ، وأنه ليس السيد المسيطر على قلمه .

ظهر بعد ذلك حوالى سنة ١٧٣٤ L' Histoire D'estervanilegonales

وفى العام التالى Une journee despagues

وفى سنة ١٧٣٦ طبع لساج Le bachejier Desalamanque

وفى سنة ١٧٤٠ أخرج كتابه La Valise trouvee والحق به تلك الرسائل البلاغية ، التى كان قد ترجمها أيام شبابه وهو خال من التجارب وهذا أفرغ لساج جعبته فى عمل متواصل لاتخلله فترات من الراحة الحقيقية .

وبالرغم من أن انتاجه الاخير كان ضعيفا ، فان لساج مع ذلك كان يتمتع بشهرة أدبية يستحقها ككاتب ومفكر وأديب فنان . ولقد أحبه كل من عرفه لانه كان طيب القلب رضى النفس ، وصاحب ذكاء نادر . وكانت أحاديثه الطلية تبعث الرضى واللذة فى نفس سامعها ، وكذلك كان اذا جلس كعادته فى مقهى شارع (سانت جاك) أحاطه رواد المقهى من كل ناحية . وكان بعضهم - لكى يتمكن من سماعه - يقفز الى أعلى المقاعد او المناضد . ولكن لساج بالرغم من حب الناس له ، وتقديرهم لشأنه بقى طيلة حياته فقيرا . فنجدد يعجز ، ولا يستطيع أن يجمع لابنته البائنة اللازمة لزواجها ، فتحرم من الزواج وتموت فى إحدى المستشفيات . أما ابنه الثانى فقد طلق الحياة ، وزهدا واصبح كاهنا . وانضم شقيقاه الى جماعة من محترفى التمثيل الكوميدي ، ولم يقع نظر لساج عليهما أبدا ، أما أكبر أبنائه سنا فقد التحق بفرقة (الكوميدي فرانسيز) ، وأسندت اليه أدوار الخدم والفلاحين أى انه كان من الممثلين الثانويين . أو اذا أردت لغة التمثيل قلنا (الكومبارس) . ولكنه بموهبته التمثيلية وشخصيته القوية أصبح محترما موقرا ، وأعاد علاقته ثانية بوالده . ولكن حدث بغد

ذلك بقليل أن مات هذا الابن فى حفلة صيد أقيمت فى ٨ سبتمبر سنة ١٧٤٣ ، وكان فى الثامنة والاربعين من عمره . وكان موته ضربة قاسية لوالده الذى كان كبر سنه يمنعه من العمل ، وعلو نفسه يمنعه من طلب المعونة ، وكبرياؤه الشامخة تمنعه من الاستدانة . هكذا قال عنه (فوازينون) الذى عرفه معرفة جيدة .

وهكذا لم يجد لساج بدا من أن يعتكف مع زوجه لدى ابنه الكاهن فى بلده (بولونى سيرمير) .

وهاك رسالة كتبها الضابط الفارس (تريسان) لمراسل من مراسلى الصحف المجهولين ، نشرت خلاصتها هنا ، لأنها تبين لنا نهاية مأساة هذا الاديب الكبير ، وتصف لنا حالته فى عهد شيخوخته .

باريس فى ٢٠ يناير سنة ١٧٨٠ .

لقد رجوتنى أن أفيدك ببعض المعلومات عن الايام الاخيرة لذلك الاديب الشهير مؤلف «جيل بلا» وكثير من التحف الفنية الاخرى ، فهاك ياسيدى كل ماأستطيع أن أخبرك به . بعد معركة «فونتينوى» ، فى أواخر سنة ١٧٤٥ لم يعين الملك أحدا للخدمة تحت أمرة المارشال «ديشيليو» فأوقفتنى الحوادث والنظام الجديد فى «بولونى سيرمير» فلما عرفت أن مسيو لساج - وكان آنذاك فى الثمانين من عمره - يعيش مع زوجه التى تقربه فى السن فى «بولونى» جعلت واجبى الاول الذهاب لزيارتهما لكي أقف بنفسى على حالتهما الراهنة .

وجدتهما عند ابنهما ، وهو كاهن فى كاتدرائية بولونى . كان ذلك الابن لايدخر وسعا فى خدمة أبويه ، وتحسين أيامهما الاخيرة ، ولم يكن لهذه الاسرة من موارد غير المورد المتوسط الذى يتقاضاه الابن نظير أعماله الدينية ، وبعد ذلك يتكلم صاحب هذه الرسالة عن الابن القسيس . . وكيف انه كان محبوبا من رؤسائه واخوانه فى البيعة . مما ليس له كبير اهمية لموضوعنا . ثم يستطرد واصفا حياة لساج اليومية فيقول :

انه كان يستيقظ مع شروق الشمس ، ويمضى بعض الوقت فى النزهة ، والتريض ، ثم يلقي بنفسه على مقعد طويل وينام نوما عميقا لايحاول أى شخص أن يوقظه منه .

ويمضى صاحب الرسالة فيشير الى مرض ألم بلساج ويقول :

انه أصبح فى أواخر أيامه ثقيل السمع ، قليل الحركة .

مات لساج فى ١٧ نوفمبر سنة ١٧٤٧ بعد حياة كلها عمل. شاق مضن ، وانتاج مستمر متواصل . . مضى بريثا كروحه ، جميلا وبسيطا كعبقريته ، وصلبا كالحاجة نفسها التى ناضلها طوال حياته ، ولسكنه لم يستطع قهرها والتغلب عليها .

لساج و (جيل بلا) :

لقد عاش لساج - كما سبق رينا - طيلة حياته ، رفيق الفقر والبؤس ، وحليف الظلمة الباردة . . عاش بين أحضان الفاقة التي ضمته الى صدرها في شدة وقوة ، كأنها العاشق المتيم ، والحبيب المتفاني في حبه ! ولهذا سحقت أطماعه وآماله في المستقبل ، تحت ضربات الدهر المتواليات . وتعذر على المؤرخ الأدبي أن يشبهه برجال الادب في القرن الثامن عشر . الذين كانوا دائما يتحرقون شوقا ، وتثور الدنيا بأسرها في قماقم شخصياتهم . ولهذا كره لساج عقول معاصريه ، تلك العقول التي يستبعدنها المنطق ، وتخضع خضوعا أعمى للنقد . ولا يترك فرصة مواتيها الا ويهاجم فيها فولتير واضرابه مهاجمة شديدة قوية تخسدهم نفوسهم ، وتستفز عقولهم .

لقد خلا لساج مما نسميه « الذوق الفلسفي » ولذلك لم يقم كبير وزن للدراسات الدينية ، وعلوم الاجتماع . فهو يعالج بهدوء ولين تلك الشخصيات والطبقات التي يدرسها معظم أدباء عصره وفلاسفته على أنها من رذائل النظام الاجتماعي ومفاسده : وهو بهذا يعنى بالاخلاق في ذاتها ولا يعنى بعلم اصلاح الناس . ورينيه لايؤمن بالعقل ذلك الايمان الشديد الذي يرتفع الى مرتبة التقديس ويعتقد أنه لا يتمتع بالقوة التي تسيطر على التجربة ، وهو اذ لم يكن ممن يعنى بأحوال النفس والروح بعمق ودقة فهو على الأقل الملاحظ المدقق للتيارات الحقيقية التي تخضع لها الحياة الاخلاقية . وهو - من هذه الناحية - يمكن أن يوضع بين عباقرة القرن السابع عشر ، ويترك مكانه شاغرا في القرن الثامن عشر . وكان لساج يؤمن كذلك بقوة « الغريزة الفنية » وتسليطها على الفكر الاديب ، فهو لا يطمع في أكثر من التعبير عما يرى ، والترجمة عما يشاهد في الحياة الواقعية . ولذلك نرى موهبته في « المناظرات الادبية » فقيرة هزيلة ، لان عقله الهادي يكره التهويل ، ويبغض الدعاية .

لم يكن لساج ابن عصره في كل شيء ، فالمواضيع التي كان يختارها والقوالب التي كان يفرغ فيها أفكاره ، والمنايع التي كان يستقي منها انتاجه . لم تكن وليدة العصر الذي عاش فيه ، وانتج للناس . لقد أدار لساج ظهره لعصره - الذي كانت قبلته هي انجلترا - وولى وجهه شطر اسبانيا . وهو بهذا يبعد تمام البعد عن اخوانه أنصار المذهب « الكلاسيكي » لقد لاحظ مؤرخو الادب الفرنسي طوال عصر الملك لويس الرابع عشر ان كثيرا من الادباء قد شغفوا بتقليد وترجمة روائع الادب الاسباني . ولكن بالرغم من الجهود التي بذلها هؤلاء الادباء فان الحقيقة الواقعية انه لم يظهر في المدة المحصورة بين سنتي ١٦٦٠ ، ١٧٠٧ كتاب واحد له قيمته وأثره . والسبب في ذلك يرجع الى « الفن الكلاسيكي » الذي طرح تلك القوالب الاسبانية الى أدنى درجات الفن الادبي . وبقيت الحال هكذا حتى ظهر لساج . فرأى في الادب الاسباني منبعا لا يفنى ولا ينضب يمد به المادة الحية والعناصر القوية الغنية ، من مغامرات وأحداث ووجوه شخصيات ، وعادات وأخلاق . ولقد ساعده ذلك على سرعة التأليف ووفرة الانتاج . ومن ناحية أخرى كان من حسن طابع رينيه أن اكتشف

هذا النبع الفياض ، لانه كان السبب الاول فى شهرته وذيوع اسمه لانه قذف فى تيار الحياة الادبية لشيء جديد له قيمته ، وله نتائج ا فقبيل لساج ، كان الادب الاسباني لايعالجه الا جماعة من الادباء المرتزقين تنقصهم الموهبة الادبية والذوق الفنى فلما جاء لساج اقتحم ذلك الميدان وهو متسلح بالحرية والكرامة ، ومزود بالموهبة والعبقرية ولكنه رغم ذلك بعد بعض الشيء عن (الفن) لان حياته خاضعة تمام الخضوع للمطالب المادية الضرورية بمعنى أن معظم انتاجه الادبى قد خضع لمطالبه المادية ، أو بعبارة أخرى يمكننا أن نقول أن الحاجة الى المال هى التى كانت تسيطر على انتاجه الفكرى . ولهذا كانت معظم كتبه تخرج للناس فى سرعة عجيبة منقولة مباشرة عن (المسودة) التى كانت فى حاجة الى التنقيح والتهذيب ، والحذف فى موضع والأطناب فى آخر ، ولهذا السبب أيضا كانت أجزاء كتبه تتكدس فيها «المادة الادبية» تكديسا وهى (محشوة) تكاد تغص بما فيها ، حتى ان كل ورقة من هذه الاجزاء كانت تحوى «عالما مبتدعا مخلوقا» لقد كانت شهوة الكتابة ، وتكديس الاجزاء بعضها فوق بعض تملكه وتفرض نفسها عليه فى قوة وعنف ، ولذلك تعذر عليه (تليين) أفكاره وكثر التكرار فى معظم كتبه . كان من جراء تلك الطريقة التى انتهجها لساج وسار بمقتضاها فى الكتابة والتأليف . . طريقة الانجاز السريع . والانتاج المستمر ان خلت معظم القصص التى دبجها قلمه من العناصر التى تكفل لها طول الحياة أو الخلود .

يقول جوستاف لانسون : اذا سلطنا أشعة النقد الادبى الصحيح على محصوله الوافر العريض رأينا بعضه يحترق ويبقى منه الرماد الذى يسهل على الرياح أن تذروه . . ورأينا بعضه الآخر ينير ويشع ، ويضىء ولكنه لا يخلو هو الآخر من النقائص والعيوب ، قصة «الشيطان الاعرج» وقصة «جيل بلا» .

أما قصة «الشيطان الاعرج» فقد أخذ اطارها وعنوانها من الاسبانية ولكن مادتها وحوادثها مبتدعة مخلوقة . . فاضت من نفس لساج وعقله لان هذه القصة قد كبرت - على يدى لساج - واتسعت جوانبها وحوت فى جوفها الكثير من الاخبار الطريفة والصور الغريبة . ولذلك أذاقته هذه القصة طعم النجاح لأول مرة فى حياته . . النجاح الذى يستحقه لساج . لقد تحرك خيال لساج ، فأنتج لنا من الشخصيات ما يمكن أن نعدّه تكرارا لشخصيات «لابرويير» فهو يعرض أمام أعيننا مركبا كبيرا زاخرا من الشخصيات الحقيقية الحية الغريبة أو المكروهة الشنيعة . واذا كان عمله هذا لا يضيف الشيء الكثير الى انتاج المشتغلين بعلم الاخلاق فى العصر الذى سبق عصر لساج ، والذين أطنبوا فى تحليل الرذائل والشهوات التى تصادف الرجل فى حياته فان قيمة عمله الحقيقية تأتى من طريقة عرضه لها فبحن نجدها عنده طبيعية قوية و مسلية فهذه الرذائل والشهوات يلبسها لساج لبوسها الحقيقى المحير ، وبهذا تكون قادرة على اشغال النفوس الجامدة ، وتحريك العواطف الحامدة لانه حللها وشرحها على ضوء مفعولها ونتائجها . وهذه هى خاصية لساج الاولى المهمة . ونحن اذا قارنا شخصيات «لابرويير» بشخصيات لساج . وجدنا الاول أكثر تعمقا فى التحليل ولذلك وصل الى نتائج غريبة نوعا ما لم يصل اليها لساج .

اما قصة «جيل بلا» فتتماثل مع قصة «الشيطان الاعرج» ولا تختلف عنها الا في تحديد وتخطيط لوحاتها وصورها .

لقد خلق «جيل بلا» مسألة عويصة شغلت أذهان الادباء - لا في فرنسا وحدها بل في أوربا كلها - أكثر من قرن وهذه المسألة هي : هل نقل لساج كتابه «جيل بلا» عن أصل اسباني ، أم لا ؟ أما فولتير فيقول ان هذه القصة منقولة ، أو مترجمة عن الاسبانية . والظاهر أن مهاجمته لساج وقصته بقوله هذا ، لم يكن نتيجة لسوء النية ، بل لانه اعتقد ما قال . والآن يحق لنا أن نسأل : اذا كان لساج قد نقل قصته عن أصل اسباني فأين هو هذا الاصل ؟ الواقع أن أحدا لم يظهر الاصل الاسباني المزعوم ، وذلك لسبب بسيط وهو أن هذا الاصل لم يكن له وجود في يوم من الايام ، هذه هي النتيجة الاخيرة التي وصل اليها مؤرخو الادب الفرنسي وهي نتيجة تحل «مسألة» جيل بلا وتقضي عليها من أساسها .

لقد وصل المؤرخون الى هذه النتيجة . بعد ابحاث طويلة أوصلتهم الى المراجع الحقيقية التي استوحاها لساج ، واستمد منها بعض عناصر قصته . فالهيكل الاول لفكرة قصته ، والمقدمة والاطار الذي حشد فيه افكاره ، وبعض المغامرات والاحداث التي تقص بها القصة قد استوحاها لساج من قصص اسبانية مثل : Marcos obregon estebanillo gonzalez . الخ ! ومن التمثيليات الهزلية ، وكل تلك الثروة الزاخرة للفن القصصي الاسباني (الكوميدي والدرامتيكي) . وكذلك «رحلة مدام دولنوي» ، والابحاث التي كتبت عن اسبانيا مثل «الابحاث التاريخية» ، والابحاث الخاصة بالانساب» و «الحالة الحاضرة لاسبانيا» لفايرالك ثم المذكرات السياسية والرسائل الخاصة بحكم فيليب الثالث وفيليب الرابع ، والخرائط الجغرافية الخ . . في كل هذه المراجع نجد الشرح لكل ما وجد خاصا باسبانيا وأهلها وأدبها : من دراسة طوبوغرافية (الفن الخاص بتجسيم البلدان) . وحقائق تاريخية ، ومعرفة بالاخلاق والعادات في قصة «جيل بلا» .

والآن يحق لنا أن نتساءل : لماذا أصبح كتاب «جيل بلا» من القطع الادبية الفنية التي تدخل في دائرة الادب ، الذي نسميه بالادب العالمي بينما بقيت القصص الاخرى التي أشرنا اليها مثل «ماركوس أوبريجون» و«جوزمان دالفارش» وغيرهما منطبعة بالطابع الاقليمي . . أي بقيت اسبانية فقط ؟ الجواب بسيط ، فلساج قد ادخل في كتابه «جيل بلا» العنصر الانساني بجانب العنصر الفرنسي . ولهذا يمكن القول أن أحسن ما في هذا الكتاب قد نبع من عقل لساج وقلبه . . فهو ملكه الشرعي الذي لا ينازعه فيه أحد .

ولكن قصة «جيل بلا» لم تخل من عناصر تدخل على قلب القارئ الملل والضجر وأخرى تنفر ذوقه ، وتثقل على سمعه . ومرجع تلك العناصر هي القصص الاسبانية التي تأثر بها لساج وأخذ عنها الكثير من حوادثها فهذه القصص تمتاز بغرابة الاحداث وخشونة وقباحة عواطف أبطالها وأخلاقهم . والذوق الذي يميل الى العشو والاطناب الملل ، والهجو المقذع

والفكاهات السمجة . من هنا تسربت لقصة لساج تلك الاحداث الصلغة عن اللصوص وقطاع الطرق ، والمتشردين والمشعوذين ، وشرح أعمالهم من احتيال ونصب باطناب واسهاب . أما كل الاجزاء الاخرى من هذه القصة ، التي يجب أن يقف عندها المرء ويطيل الوقوف ليمتص عقله وذوقه بفننها الرائع من : هجو لين ، وفكاهات سمجة ، وتصوير وتحليل رائع للاخلاق والعادات . . كل هذه الاجراءات يجب أن يبحث عن منبعها . . يجب أن يبحث عنها في الادب الفرنسي ، والمجتمع الفرنسي ، فمثلا تحليلاته الاخلاقية لرجال المال ، يمكن العثور على شبيهها بسهولة في الحياة الفرنسية . وذلك لان لساج كان ينظر - وهو يرسم معظم هذه الشخصيات - الى لوحة المجتمع الفرنسي وحياة من يلعبون على مسرحه .

ظهر أن الجزء الاول من قصة «جيل بلا» سنة ١٧١٥ ، وقد كتبه لساج في خريف حكم الملك لويس الرابع عشر . وهو يصف حياة البطل الخاصة . فنراه يترك طفولته ليواجه الحياة مسلحا بقليل من العلم الذي يفتقر الى تجارب الحياة الحية . هو ساذج صفي القلب ، وهو مختال فخور لانه شاب قد ركب الغرور رأسه ، وهو حديث العهد بالحرية ، ولذلك نراه مخمورا بها لا يكاد يفيق . فلننتظر أن الحياة سوف تشكل هذا الأبله الذي يسير بقليل من وحى الغريزة ، وكثير من عاطفة الجبن والخوف ، ذلك الأبله الذي يتخلي عن الفرصة حين تواتيه . . ذلك الذي يريد أن يصبح غنيا موسرا من غير أن يبذل شيئا ، أو يجازف بشيء لانه يخشى السجن والفضيحة .

في وسط هذه الضجة العجيبة الغريبة ، التي قذفه القدر اليها . . نراه يتعلم لأول مرة أن «جيل بلا» لا يكاد يذكر أو يميز عن مخلوقات الله وانه ليس من واجب العالم الاول أن يعجب بجيل بلا ! نجده يتعلم أن الحياة ماهي الا شرك نقع فيه بارادتنا ومعرفتنا . وأخيرا نرى تلك الصحبة العجيبة الغريبة تعلمه أن يحذر الغير ويحذر نفسه كذلك !!

ثم ينتقل الى مرحلة جديدة من مراحل حياته الطويلة العديدة فلقد جعلته الفرصة الحسنة - التي لم يفكر فيها أو يتأمل - يسيطر على بيت أحد الأثرياء . فلقد أحبه أهل هذا البيت جميعا ، وجعلوه يشرف على أحوالهم وشئونهم ، وهكذا عاش في رغد من العيش ، وكان في استطاعته أن يصبح غنيا من غير أن يسرق ويموت شريفا .

ولكن في سنة ١٧٢٤ ظهر الجزء الثالث فقذف «بجيل بلا» بعيدا عن منزل «دون الفونس» في مغامرات جديدة مشوقة وفي عالم أرقى وأسمى من عالمه السابق .

هنا يصبح «جيل بلا» نديم الدوق «دي ليوم» وبهذا يستطيع القاري أن يدخل معه الى البلاط من الباب الضيق ، ويجتاز في صحبته الدهاليز والطرقات الخفية ، ويرى معه الكثير من عجائب البلاط ومتناقضاته . يرى تلك الآلات التي توجت الاحترام لسلطتها وجبروتها والتي يسمونها الوزراء ورجال الادارة والحكومة ، ويقف على ما يتفشى في نفوسهم من عواطف شريرة وشهوات خطيرة .

ولساج اذ يصف بلاط الدوق «دى ليوم» يعطى للقارىء صورة صحيحة واضحة عن البلاط الفرنسى فى عهد لويس الرابع عشر . فهو يتحدث عن الحالة الداخلية فى فرنسا ، وعن الاحداث التى توالى فى المدة المحصورة بين سنتى ١٧١٤ ، ١٧٢٥ . ماذا حدث فى هذه الحقبة الزمنية هل وضع لساج يده على وثائق مجهولة ؟ لا . ان ما حدث بالفعل هو أن الحكومة سارت الى هدفها بثيابها المهلهلة ، وفى طريقها الوعر الشائن ، وقد حجبت شخصية لويس الرابع وراء أستار كثفة . رأى لساج أن الأب ديبوا هو الذى يقوم بشئون الحكم ، بينما كان ساعد فيليب الخامس الأيمن هو «البيرونى» ثم ابتعدت هذه المساخر وأخذ «فلورى» يسكن ويهدأ الجو ويضع المسائل الهامة فى قوالب شريفة ويعالجها بوسائل سليمة فاذا فشل فسلاحه هو الصمت التام .

ثم طبع لساج سنة ١٧٣٥ نهاية قصته . وفى هذا الجزء يعرض على القارىء مرة ثانية حياة «جيل بلا» السياسية يعرض حياته هذه وهو فى صحبة «اوليفاريس» كما سبق وعرضها مع الدوق «دى ليوم» ولكننا نرى أن كل شىء قد تغير فى هذا التكرار : فالوزير رجل شريف ، والنديم رجل شريف ، وكل فرد يبذل قصارى جهده لتحقيق أغراض الدولة والملك ونرى كذلك أن حب الذات ، والأنانية قد تقلصا الى الحد الأدنى . . ذلك الحد الذى تتطلبه حقيقة الحياة . وعلى هذا يمكن القول أن المؤلف «لساج» قد استطاع أن يكون فى خلال اثنتى عشرة سنة فكرة أرقى عن الرجل الحاكم وقد أخذ لساج طريقة بناء القصة عن السيدة «دى سكوديرى» التى كانت مولعة بتوسيع الموضوع وتشريحه حتى يمكن نشره فى عشرة أجزاء او يزيد . وكان من نتيجة استخدامه لهذه الطريقة أن كثرت الشخصيات فى قصته ، وتعددت مغامراتهم وأحداثهم فلا تمر على القارىء مدة قصيرة الا وتطالع فيه شخصية جديدة تقص عليه قصتها . بل لقد اضطر لساج أن يلقى ببطله «جيل بلا» فى غمار كثير من المغامرات لا لشىء الا ليعطى فرصة لشخصية ما لتظهر وتروى لنا حوادث حياتها ، ولذلك أصبح من السهل على المرء أن يحذف أكثر هذه الاقاصيص من غير أن يضر بجوهر القصة . ولكن هناك - من ناحية أخرى - الكثير من الحوادث التى كان «جيل بلا» هو بطلها الحقيقى .

والآن لننتحدث قليلا عن شخصية «جيل بلا» : هو ذلك الطفل الذى يمكن أن يكون - بشىء من الجهد والصعوبة - بطلا لقصة أو أقصوصة هو طفل طيب القلب ، خلا قلبه من المكر والخبث ، وخلت حياته من الليونة والحماسه . ولكنه شخصية محبوبة قاهرة ، رغم خلوها من العمق ، هو اذا تعثر وسقط ، وجد من نفسه القوة التى تساعده على النهوض والنسيان . وهو قادر على تعزية نفسه فى نواكب الدهر ونوازل الزمان انه يشخص ببصره دائما الى المستقبل ، ولا يلتفت أبدا الى الماضى . دائما فى حركة مستمرة ، لا يسترسل مطلقا فى أحلامه وتأملاته . أن ذلك الانسان الذى هذبه التجارب ، وصقله مسن الحياة بعد أن كان يختال اختيال الطفل الأبله الساذج . . هذه هى شخصية «جيل بلا» . . الشخصية الانسانية .

شخصية «جيل بلا» شخصية محشوة ان صبح هذا التعبير ، فقد خلقها لساج على هذا الاتساع لكي تبلغ كل الأحداث والمغامرات ، وعلى هذه المرونة لكي تتسع لهذا التنوع والتغير ، « فجيل بلا» لا يستقر ولا يهدأ ، فبمجرد فراغه من مغامرة سعيدة أو بئيسة ، نرى المؤلف يقذف به الى مغامرة جديدة . وهكذا تتعثر هذه الشخصية في وسط هذا الخضم الهائل من الأحداث والافعال وكان من جراء ذلك أن فقد «جيل بلا» مانسميه «تغير أحوال الشخصية» بمعناه الدقيق . لانه في الحقيقة لا يملك غير الاسم فقط ، أما فيما عدا ذلك فهو جميع الناس ، فالقارئ لا يستطيع ان يقول أن الرجل الذي عاش في الكهف مع اللصوص ، هو نفس الرجل الذي عاش في قصر «أوليفاريس» لانه لا توجد هناك أى رابطة نفسية تربط تسلسل هذه الحلقة من المغامرات .

ان أعظم أعمال لساج هي طريقة رسمه وتصويره لخلق شخصياته وعاداتهم ، فقصته هي معرض عظيم من الصور الرائعة . . . الحقيقية .

وان جدته في هذا الامر هي ملاحظته كل العوامل الداخلية التي توحى للرجل أعماله وأقواله ثم اشاراته وتعابير وجهه ، وكذلك دقة وصفه التي تكاد تبلغ حد التجسيم للملابس والأثاث والمنازل والطعام الخ . . فهو من هذه الناحية واقعي بل من أكبر الواقعيين وأدقهم .

علم لساج جوهر الحياة وحقيقتها ولذلك لم يكن يتألم حينما يرى الساقطات واللصوص لانه يعلم أن بينهم الشرفاء والفضلاء . علم لساج أن الفائدة واللذة تقتسمان العالم ، ولا تتركأ مكانا «للفضيلة الخالية من الغرض» وهو يعلم كذلك حقيقة مايسمونه بالرجل الصالح الشريف ، ان الرجل الصالح الشريف لا يمكن أن يكون أرقى من «جيل بلا» لان «جيل بلا» هو النموذج الصحيح الذي يمثل هذا النوع من الرجال في الحياة الواقعية هذا الرجل الذي يلعب دوره على مسرح الحياة ، كما لعب «جيل بلا» دوره بين دفتي كتاب .

وأخيرا بقيت كلمة صغيرة نقولها عن أسلوب لساج . كان لساج يتحرى في أسلوبه البساطة الطبيعية ، ويسير معها الى أقصى حدودها حتى تسلمه في بعض الأحيان الى الإهمال . وكان أسلوبه يجمع في وقت واحد بين القوة والضعف ، بين الهدوء والشدة ، بين اللين والسخرية اللاذعة المفاجئة . وهو من هذه الناحية يشبه الأسلوب (الدراماتيكي) . وأسلوبه هذا لا يخلو من القدح والهجو ، ولكنه بالاختصاص الأسلوب المعبر عن الحياة .

ولساج في القرن الثامن عشر خير وريث لموليير ولابروير واضرابهما من الكتاب الذين هاجموا في تمثيلاتهم العادات القبيحة والخلق الذميمة التي تحلى بها أهل عصرهم ، ولكنه يفوقهم جميعا في أنه عرضها في شدتها وقوتها . . . عرضها كما وجدها في الحياة .

فرانسواریتی دی شاتوبریان

(۱۸۴۸ - ۱۷۶۸)

عناصر البحث

- ♦ طفولة شاتوبريان •
- ♦ شخصيته •
- ♦ عبقرية المسيحية •
- ♦ أتالا - رينيه - الشهداء •
- ♦ لوحات شاتوبريان الطبيعية •
- ♦ نفوذه !

كل فرد قرأ في أساطير الاغريق الأقدمين
وتاريخهم ، عرف المنزلة السامية والمكانة الممتازة ،
التي يتمتع بها أنصاف الآلهة عندهم ، هذه منزلة
شاتوبريان ومكانته في عالم الأدب ودنيا الفن .
فلقد وصفه فيلسوف فيرنسا الكبير «أناطول فرانس»
بقوله : ان شاتوبريان من أنصاف آلهة الأدب في
في القرن التاسع عشر .

طفولة شاتوبريان :

ولد فرانسوا رينيه دى شاتوبريان في ٤ سبتمبر سنة ١٧٦٨ في
سانت مالو بشارع اليهود المظلم الساكن ، وقد طفى هدير الموج على
صرخاته الاولى ، وكان صوت الطبل أول معكر لنومه !

ولد لأبويه قبله تسعة أطفال وشاتوبريان يضرب بأعراقه الى عائذ .
عريقة انحدرت من بريتاني . نشأ فارسنا الصغير على أرصفة سانت مالو
وقد تلقى دروسه الأولى في كليات دول ، دى دينان . وقد حددت عائلته
مستقبله فأرادته أن يكون بحاراً ، ولكنه صمم أن يكون (قسيساً) حلت
أجازته السنوية فتخلص من قيود الدراسة ورحل الى قصر « كومبورج »
الحزين .

وهناك في ضاحية « كومبورج » عاش شاتوبريان بين حقول القمح
التي تنعقد في سمائها الغيوم الداكنة وذرات الغبار الشاحب ، وعاش مع
والده . . ذلك الكهل الذي طلق حياة المغامرة والمتاعب . وبلده « كومبورج »
هذه التي انفق فيها شاتوبريان طفولته الاولى ذات تربة قاحلة فقيرة . .
وهو مربد مغبر لا يصفو ولا يعتدل .

لم يجد شاتوبريان في بيت الأمومة ما يرضيه ، فتركه وعاش مع
أحدى أخواته البنات ، وهي طفلة هزيلة ضعيفة قد فقدت حنان الام مثله
وكان القدر شاء أن يعوضهما بعض ما فقدها من حنان ، فأرسل اليهما
«لافيلوف» الخادمة العجوز فوجدت في قلبها الطيب الساذج ألواناً شتى
من العواطف النبيلة لم يدوقاها من أمهما . .

كان رأس رينيه الجميل يعمل في الوحدة : يجمع الصدور ، ويتمتع
بالاحلام ، ويحصل الرياضيات واللاتيني في الكلية القائمة في منطقته
الريفية يتمتع بعبقورية فطرية ، وذاكرة قوية ، وإرادة حديدية توجهه
الى أهدافه المثالية . . الى المجد ! عاد شاتوبريان الى «كوم بورج» فطالعت
هناك مناظر غابات ضامته وأرض قاحلة مقفرة . . كان القصر نفسه رمزا
للعزلة والوحدة . . وكان شاتوبريان يعود اليه في المساء بعد أن يكون قد
انتهى من استراضائه وعدوه في الريف الغامض ، فيجلس في بهو القصر
الفسيح الذي تنيره بغض الاضواء الشاحبة القائمة مع والده ولا ينبس

بينت شفة • وبعد مدة ينهض ويذهب لينام وليواجه - وحده - أشباح الليل المخيفة •

لم يكن شاتوبريان سعيدا فى هذه الحقبة من حياته ، فبعد عودته من الكلية الى كومبورج انتابته الهواجس والבלابل ، وشعر بحزن قاتل حتى أنه حاول الانتحار فقد حدث وهو يستريح فى الغابة أن أخرج بندقية الصيد ووضعها على جبهته ولكنه أحجم عن إطلاق الرصاص ، لم يكن أحجام شاتوبريان عن دافع دينى لا ، فقد كان قسطه من العقيدة ضئيلا ، لم يتغلغل فى أعراقه ولم يتحد ويمتزج بدمائه فيستطيع أن يمل عليه أفعاله أو يؤثر فى قراراته • لقد سمع شاعرنا فى اللحظة الحاسمة - كما يقول أناتول فرانس - صوت القدر • • «يجب أن يعيش رينيه» •

كان عزاء شاتوبريان فى وحدته الباردة هذه هو أخته «لوسيل» فقد كانت مثله فى الطبع : عصبية المزاج حاملة محلقة فى عوالم أخرى من الخيال • ثم القراءة • • فشاتوبريان يحمل معه الكتاب دائما يحمله وهو ملقى على بساط الحشائش فى الغابة ، ويحمله وهو فى قاربه الصغير يقطع به صفحة الماء الهادئة الساكنة •

وهكذا تكون فى هذا الجو الذى يتنفس فيه هذا الاب الصامت وفى هذه الحياة الفارغة الجامدة المظلمة التى لاينيرها الا حبه لاخته الحاملة وكتابه العزيز • • تكون شاتوبريان العظيم الذى أدهش العالم • • شاتوبريان الذى كان يعجز عن الاتيان بعمل محدود ، ذلك الذى كان يبحث عن الحقيقة ليزيل عنها أستار الخرافة والوهم ، والذى كان يتجنب الثغر والتعمق وكثرة التحليل ، ذلك الذى لم يطالب الطبيعة الا بإظهار حقيقتها ونكشفها له خاليه من كل زيف حتى يستطيع أن يعبر عنها تعبيرا صحيحا سليما • كان شاتوبريان فى مطالعته لا يبحث عن زاد من الآراء والفكر لتوسيع مداركه • وذلك لأنه لا يريد أن تتأثر أحكامه بأى مؤثر خارجى • بل كان يبحث عن موجه لإحلامه فى الموضوعات العاطفية وفى مثاليات الصور • فنراه يضع فكرته عن المرأة بعد مطالعته الأدبية ومشاهداته الخاصة فى الحياة فيقول : «المرأة هى شبح الحب» ثم يحاول أن يبرز فكرته هذه فى كل ما يكتب •

وأخيرا حان الوقت الذى يجب عليه فيه أن يحدد مستقبله ، فالحياة عمل ، لا يمكن تجاهل هذه الحقيقة • فلقد بلغ رينيه الآن مبلغ الرجال ويجب أن يعمل ليعيش • كانت التقاليد القديمة لغائلته تفرض عليه ، الانخراط فى سلك البحرية كبهار عادى • وافق شاتوبريان فى أول الامر ثم ثارت نفسه على هذه التقاليد البالية وغادر بلده الى العاصمة باريس لبحث فيها عن الثروة والحكمة والمجد •

ولكن مدينة فرساي - حيث البلاط الملكى - استهوت فاضمر أمرا • استطاع شاتوبريان بلباقتة أن يندمج فى رجال البلاط ، ولكنه أظهر خشونة وقسوة فى معاملاته مع العظماء حتى أنه اختفى فجأة من «فرساي» عقب حفلة صيد أقامها الملك وكان شاتوبريان بين المدعوين من رجالها وبعد ثلاث سنوات من مغادرته فرساي أى سنة ١٧٩٠ وصله شىء جعل

قلبه يخفق بشدة وعنف • كان هذا الشيء أرجوزة غرامية من نظمته
وممهورة بامضائه • •

وهكذا رفعت الستار عن أولى مغامرات الشباب في حياة شاتوبريان
الغرامية • يقول الشاعر الشاب في أرجوزته :

أدخل وقد أحاطني ظلام القبور •

وظلي وحيد هادى •

في الغابة باحثا عن الراحة •

سيموت اسمى بعد هذه الإقامة الطويلة بلا مجد

ولكنه سيعيش طويلا تحت السماء التى تظلل الغدران •

ولكن جيلا بعد جيل سيستمع الرعاة •

وهم يرعون ابلهم الى قصتى القصيرة •

سوف يقولون «لقد ولد صديقنا فى هذا المهد

وبدا حياته فى ظل أشجار (الصفصاف) هذه •

لقد مر وهو ناعس بالقرب من هذا الماء •

وفى هذا الوادى تحت الازهار ثوى فى لحد •

فى سنة ١٧٨٧ تزوج الأخ الأكبر لشاتوبريان من بنت مسيو «دى
ماليشرب» • وكان ماليشرب هذا يندمج فى الوسط الادبى الفلسفى فى
عصره ، ويخالط جهاينة رجال الفكر والادب والفن فى بلده • ولقد اتصل
به شاتوبريان وأعجب به كثيرا ، ولكنه لم يأخذ عنه : حرية التفكير • •
والتواضع • • والبساطة ، وهى تلك الخلال التى اكتسبها «ماليشرب» من
عباقرية وفلاسفة عصره • • تلك الخلال الطبيعية السليمة التى توفر السعادة
للرجال جميعهم •

كان هذا الرجل نسيج وحده ، هو يحب العدل ويخضع لسلطان
العلوم ويفكر كريئال وديدرو ، ويعتقد مثلهما أن الرجل لا يقدر فى المجتمع
الا بأعماله واصلاحاته • وكان يحب السفر والرحلات ويقدر فوائدها لترحال
ومن هنا كان له بعض التأثير على مستقبل شاتوبريان • قام برحلات كثيرة
فى أيام شبابه • ففى سنة ١٧٧٦ أرسل فى مهمة رسمية حكومية مع
«ترجو» فجابا أنحاء فرنسا وهولندا وسويسرا على الاقدام متخذًا كلمة
جان جاك روسو شعارا لهما : «ان السفر على الاقدام هو نفس الطريقة
التي كان يتبعها «طاليس» ، أفلاطون ، بيتاغور» وانا لا يمكننى أن أتصور
كيف يستطيع الفيلسوف أن يستفيد من رحلته اذا قطعها بطريقة أخرى •

كانت هذه طريقة «مالشرب» فى السفر • • السير على الاقدام ، فلما
تقدمت به السن حط رحاله فى فرنسا لا يغادرها ، كان يجلس على كرسيه

المريح ويرسل فكره وخياله في رحلات بعيدة . وكان يتبع على الخارطة طريقة سير السفن التي خرجت للاستكشاف مثل دريك وبوجنيل ولايروس ولقد علم أن لايروس قد وصلت خليج بوتاني سنة ١٧٨٨ ثم انقطعت أخبارها . وان دانتر كاستو أعقبها للبحث عنها وكان الشعب يترقب بقلق أخبار هذه الحملات الاستكشافية ولقد كتب في هذا الصدد أحد أصدقاء «ماليشرب» واسمه «أندريه شنيه» هذه الابيات التي لم تعرف الا من بعض الاصدقاء :

أنا أتهم الرياح ، وهذا البحر الذي أفقدته الغيرة صوابه بتعطيل
أو ربما باغراق «لايروس» .

وفي وسط الجو المكهرب تحركت شهوة «ماليشرب» للرحلة ولكن سرعان ما اصطدمت هذه الشهوة بصخرة صلبة أوقفتها عند حدها . .
صخرة كبر السن ، والصحة الذابلة . ولكنه كان يحب هؤلاء البحارة الشجعان ، فمهمتهم السامية هي تغذية دائرة معارف المسالك البحرية واكتشاف طرق ملاحية جديدة عبر البحار والمحيطات . فكر «ماليشرب» في شاتوبريان ذلك الاديب الناشئ ، وعول على اقناعه للابحار الى الدنيا الجديدة . . أمريكا .

استقبل الرحالة المتقاعد أدينا الشاب في صبيحة أحد الايام وأخذ يدرسان في خارطة أمامهما خطوط الطول بين ممر «بهرنج» وخليج هدسن وكان «ماليشرب» في ذلك الوقت مقتنعا بأنه في يوم من الايام سوف يكتشف طريق برى بين أمريكا والهند يسير في الاتجاه الشمالى الشرقى ، تملك حب الاكتشاف والمغامرة رينيه ، فوافق على مشروع صديقه ، فقد خيل اليه أنه مستكشف عظيم بالرغم من جهله استعمال «البوصلة» وغيرها من أدوات الرحلات الطويلة . كان فارسنا على يقين بأن أبواب المجهول سوف تتفتح أمام قوة الشباب .

فى ربيع سنة ١٧٩١ أبحر شاتوبريان من سانت مالو الى بالتييمور وزار عدة مدن أمريكية . فلقد ذهب الى نياجرا ومنها الى أوهيو واستمر فى رحلته فى هذه المقاطعة حتى وصل الى نقطة تلاقىها «بكانتكى» وهنا يمكننا أن نتصور سعادته وهو يتتبع شواطئ المسيسيبى ويرى فلوريندا ويدون مذكرات رحلته . ثم الى كندا وملأ عينيه بمنظر بجيراتها الساحرة بعد هذه الرحلة رجع شاتوبريان الى فرنسا ، وهو يحمل فى مخيلته صورة طبيعية مختلطة ومضطربة : من غدران هادئة تعلوها الشمس الآفلة وأمواج هائلة غاضبة تتكسر على صخور الشاطئ النابتة ، الى دغل محدود المساحة ملتف الأفنان يسوده السكون والهدوء وينادى كل محب للعزلة والوحدة .

كانت وحدة أو عزلة شاتوبريان من نوع جديد فهو كلما أمعن فى صحراء عزلته ازداد ايمانا بأن الجماعة سوف تطرق عليه باب صومعته وتقدم اليه آيات الإعجاب والتقدير .

كما كانت تفعل الطيور المختلفة التي صادفته فى رحلته . تلك

الاطيار التي كانت تترك أفنانها وتقترب منه مفردة ، مترجمة بلغتها الخاصة عن تقديرها له واعجابها به .

لقد انتهى الآن من الأمريكيين والكنديين بانتهاء رحلته التي استغرقت ثمانية شهور ، ولكنه أفاد منهم الكثير حتى يخيل للمرء أن شاتوبريان قد قضى في رحابهم عشرين سنة أو أكثر ولقد خرج من رحلته هذه بنتيجة هامة هي : أن الأرض على اتساعها لا تتسع لآلامه وشجونته .

اضطربت حياة فرنسا السياسية في ذلك الوقت ، ودبت في أوصالها الفتن والقلق . فلبى شاتوبريان نداء الواجب وتطوع في جيش الامراء في ١٥ يولييه سنة ١٧٩٢ وكان قبل ذلك بقليل قد تزوج ، من فتاة غنية اختارتها له أخته لوسيل . ولقد أثبتت هذه الزوجة الغنية فيما بعد أنها امرأة فاضلة شجاعة .

استفاد شاتوبريان الشيء الكثير من خدمته العسكرية ، فقد وقف على نوع الحياة العسكرية ، وعلى الحقائق الخفية التي لا يصل اليها الا من يخدم في صفوف الجند ، ويصول في ميادين القتال ، وأخيرا وصل الى ما يمكن أن نسميه « بشاعرية الحب » جرح شاتوبريان في هذه الحرب وهو يقاتل بالقرب من « ثيونفيل » ، ودب في جسمه المرض ، ولذلك سافر الى بروكسل ومنها الى جرسى .

قلنا أن شاتوبريان قد استفاد من حياته العسكرية وبقي لنا أن نقول أنه قد استفاد كذلك من رحلاته وأسفاره . كان السفر يغذى أدبه وفنه فهو منهل عذب ، وجد مصبه الطبيعي في روح شاتوبريان الشاعر الحاملة كثرت مخطوطات شاتوبريان أثناء رحلاته ولقد وجد في هذه المخطوطات ضمن أشياء أخرى - قصائد من الشعر الحماسي المنشور وقصة قصيرة ، عنوانها « أتالا » كان شاتوبريان يعتز بهذه القصة ولذلك كان يضعها في حقيبته العسكرية ويحملها معه الى ميدان القتال . ومن أجل ذلك أصيبت هذه القصة بمقذوفين نارين في ممر « لاموسل » ، لم تكن الحالة لتسمح بنشر زهور الرحمة والبر على « أتالا » حين ظهورها لأن مؤلفها كان معتدلا في نصرانيته ، فاضطهدت القصة كما اضطهد المؤلف . تحت هذه الظروف القاسية اضطر شاتوبريان الى مغادرة فرنسا والسفر الى انجلترا .

وهنا ترفع الستار عن حياة مظلمة بائسة شاحبة . انفق شاتوبريان في انجلترا عدة سنين سوداء قاسى خلالها الأمرين . لقد ذاق طعم المرض والبؤس والتعب ، وعرف الحياة على حقيقتها السافرة . كان مورده الوحيد للعيش في انجلترا - وهو المورد الذي أنقذه من الموت جوعا - كمية المال الضئيلة التي كانت تصله من أسرته .

وكذلك أجره الهزيل الذي كان يتقاضاه نظير أعماله المرهقة المتعبة نظير اشتغاله ، بأعمال الترجمة ، واعطاء الدروس في اللغة الفرنسية .

في هذا الجو القاسي أتم شاتوبريان مؤلفا دمويا - ان صبح هذا التعبير - فهو مؤلف شديد يتقشى فيه الالحاد والكفر . ونعنى به « رسالته في الثورات » .

كان شاتوبريان قد انتهى من الجزء الاول من هذه الرسالة حينما وصله خبر موت أمه واحدى شقيقاته . أثر فيه هذا الخبر تأثرا كبيرا ، فانعكست أوضاع تفكيره وتغيرت نظراته الى الحياة حتى انه ارتد فجأة الى المسيحية وصار من أفرادها المخلصين . وقد قال فى هذا الصدد : « انى أبكى . . وأعتقد » ونستطيع تغليل سهولة هذا الارتداد . فشاتوبريان لم يكن فى حاجة الى العلل والاسباب والمقدمات كي يصل الى الاعتقاد الراسخ المتين بل كان يكفيه أن العقيدة حلم حنون رائع جميل . وأحلام شاتوبريان التى من هذا القبيل سرعان ما تصبغ أمام عينيه بصيغة الحقيقة التى لا ريب فيها .

لما تغلغل الاعتقاد والايمان فى نفسه صمم على محاربة الالحاد وكانت الخطوة الطبيعية للبدء فى هذا العمل أن يبذل جهده فى محو أثر كتابه الاول «رسالة فى الثورات» وهكذا بدأ وهو فى لندن يؤلف كتابه الخالد «عبرية المسيحية» . ثم زادت ثورته النفسية فرجع الى فرنسا ، وضم سنة ١٨٠١ قصته «أتالا» التى وصف فيها مشاهداته وتأثيراته خلال رحلته الى أمريكا وكندا ، بكتابه الجديد «عبرية المسيحية» الذى أحدث ثورة فى عالم الادب . . فقد كان هذا الكتاب تحفة فنية خالدة أحييت اللغة ، ووجهت الأفكار وجهة جديدة .

أخرج شاتوبريان كتابه «عبرية المسيحية» فى الوقت المناسب . . ساعة الصلح الدينى حيث صمم المجتمع الفرنسى على الائتلاف مع الكنيسة . كانت أحوال المجتمع آنذاك فى حالة ماسة الى التشذيب والتنقيح فلقد كانت ريع الارستقراطية وعطر البلاط ضمن عناصر الجو الفرنسى ، كانت هذه الروائح تفوح وتعبق وتنعقد فى سماء المجتمع الفرنسى . كانت النساء تذهب الى البيعة وفى ركابهن الجمال والشباب فيلتف حولهن الرجال وينثرون تحت أقدامهن عقود المديح والغزل . وهكذا خلا المحراب فى كل كنيسة من زواره المؤمنين وأصبح لمدة طويلة مهجورا ينعى من بناء ولذلك أصبح من الطبيعى أن يحن أهل فرنسا الى الماضى . وأضحى كل من يتمتع بالشباب ، وكل من كان مزاجه يشعر بأنه يعيش فى وادى أحلامه - كشاتوبريان - يبكى . . ويعتقد .

كتاب شاتوبريان «عبرية المسيحية» عظيم الخطر من جميع نواحيه اعتبره النقاد معجزا فى أسلوبه ، وفى أفكاره ومعانيه ، وأخيرا فى ثروته الدفاعية عن الدين وقد ظهر هذا الكتاب - بعد ضم قصة «أتالا» اليه - سنة ١٨٠١ ضمن مجموعة «شعائر فرنسا» وكان مالميشرب العجوز فى ذلك الوقت يرقد فى لحده بمقبرة «ماديلين» ولا يعلم أن صديقه الرحالة قد رجع من كندا بقصة كاثوليكية دينية .

فى ذلك الوقت رآه بوناپرت وأراد أن يتوج به فرنسا التى يحكمها حكما مطلقا . وكان شاتوبريان بطبيعة الحال على أهبة لتلبية نداء رجل عظيم يريد له المجد والعظمة وهكذا أصبح السكرتير الاول فى السفارة الفرنسية بروما . ولقد حدث أن قتل «الدوق دنهاين» فأرسل شاتوبريان استعفاه من منصبه الى الحكومة فى باريس فى ٢٠ مارس سنة ١٨٠٤ .

سافر الى الشرق بعد أن وضع التخطيطات الاولى لقصة «الشهداء» وكان ذلك سنة ١٨٠٦ فزار اليونان وبيت المقدس ، وعاش في جو الشرق جو الخيال والسحر وأخذ يبحث عن صور الطبيعة ولوحاتها ، ويفتش وينقب عن المجد .

وأخيرا صمم على الرجوع ووصل الى العاصمة الفرنسية في ٥ يونيه سنة ١٨٠٧ .

بعد رجوع شاتوبريان الى فرنسا أرغمته الحوادث أن يغير مجرى حياته الى اتجاه جديد فقد حدث سنة ١٨٠٩ أن أعدم عمه «أومان دي شاتوبريان» لاعتباره من أنصار الملكية . ولقد عجز تمام العجز عن مد يد المساعدة لعمه ولذلك نقم على الامبراطور ، وأصبح من العسير أو من غير الممكن أن ترجع علاقتهما على ما كانت عليه فقد دب الخلاف بين الرجلين واستحكمت بينهما الجفوة وزاد النفور بسبب هذه الحادثة المؤلة . ثم حدث بعد ذلك بقليل أن انتخبته الاكاديمية الفرنسية ليكون عضوا من أعضائها ، فقدم رسالته لهذا المجمع الشهير ، وهنا تدخل نابليون وأمر بعدم نشر الرسالة .

ويسدل الستار سنة ١٨١١ على حياة شاتوبريان الأدبية ليرفع من جديد عن حياته السياسية ، شغل شاتوبريان مناصب سياسية كبيرة . . شغل منصب السفير والوزير والديبلوماسي . ولقد عالج مهام هذه المناصب جميعها بطريقته الخاصة التي تتلخص في كلمة واحدة التنقيح، أو الترميم ولقد وقف من رجال الدولة موقفا وسطا : فهو لم يساير أو يحابي الملكية وفي نفس الوقت لم يحتقر رجال البلاط . . رجال العهد الماضي .

بعد سنة ١٨٣٠ ارتبط شاتوبريان برباط الشرف بالاسرة الملكية الشرعية في فرنسا . وكان من نتيجة هذا الموقف أن احتقر عائلة «الأورليانز» وأمراءها وسياستها وكل ما تمثله أو تقوم به من أعمال .

بقيت لنا كلمة قصيرة نقولها قبل أن نودع شاتوبريان ونوسده قبره وهي كلمة عن مدام «ريكاميه» تلك السيدة الأدبية التي خففت صداقتها من آلام شاتوبريان وادخلت في نفسه السلى والتعزية ، استطاعت مدام ريكاميه أن تجمع حول اديبنا رجال عصره النابهين . ولقد أفاده ذلك من ناحيتين : الأولى أنه بعد عن العزلة والوحدة بعض الشيء ، والثانية أنه استفاد من ثقافتهم العالمية .

مات شاتوبريان في ٤ يولييه سنة ١٨٤٨ وكان قد أوصى ذويه بدفنه بالقرب من سانت مالو على قمة صخرة «جراند بى» فكأنه أراد وهو يرقد رقدته السرمدية أن ينعم بصوت تكسر الموج . . ذلك الصوت الذي كان أول شيء نفذ الى أذنيه حينما وجد في هذا العالم .

شخصية شاتوبريان :

لشاتوبريان روح موحشة تحب العزلة وتميل الى الوحدة ، كان اديبا بفطرته ، وبطبيعته ، وبما اكتسبه من ثقافة، يعشق الفن ويحب الخيال

ولقد كيفت الظروف شخصيته فأصبحت معقدة ، ومتعددة الجوانب يصعب تحديدها وتحليلها على الوجه الأكمل . . ومن أخص مميزات الروح الموحشة أو النفس المنعزلة أنها تجعل شخصية صاحبها قوية في عنف فيصعب الإحاطة بها أو مقارنتها بغيرها . لقد عودته طفولته الشاذة الغريبة ألا يقيم كبير وزن لشعور غيره ، وخاصة اذا تعارض هذا الشعور مع شعوره هو واحساسه ولقد كان من نتيجة تربية والده الجامد الصامت أن جهل شاتوبريان النعومة والرقّة في التقبل وفي الاعطاء ، ولكنه رغم ذلك لم يكن يخلو من النعومة والحنان فقد أحب صداقته وگرامياته بمعنى أنه خلق من نفسه صديقا لنفسه ومحبا لنفسه في آن واحد هكذا أحب شاتوبريان نفسه أكثر من حبه لأصدقائه .

كانت الكبرياء من أهم صفات شاتوبريان الاخلاقية فهي متغلغلة في ضمير نفسه منتشرة في كل تضاعيف ذاته ويرجع السبب في ذلك الى مدة اقامته في «دومبورج» ففي خلال هذه المدة الطويلة من حياته لم يختلط بشخص انساني - خارج مخطط اسرته - وبذلك حرم من دراسة أعماق نفوسهم ، تلك النفوس التي يحاول بعضهم أن يغلفها بقناع زائف حتى يجهل الناس أمرها . أما هو فقد أقحم نفسه في نفسه - ان صح هذا التعبير - فعرف دوافعها ورغباتها ووجداناتها . لم يشعر شاتوبريان قبل اقتحامه الميدان السياسي بضرورة معرفة شيء عن غيره من الناس . وهكذا كان يجهل من أمرهم كل شيء ، لانه لم يحاول أن يقف على نفسياتهم وما يجول فيها من دوافع وغرائز وعواطف مختلفة وكان من نتيجة ذلك أن جاءت دراسته لعلم النفس متأخرة . وهكذا تكونت عاداته وتشكلت طباعه وأصبح لايهمه الا شخص واحد في هذا العالم . . هو شاتوبريان نفسه ولما كان لا يشعر الا بنفسه ، ولا يهتم بغيره من المخلوقات البشرية . فقد احترم هذه النفس احتراما شاذا وحيدا في نوعه ، احتراما يقرب من التقديس والتأليه .

ولقد سمي «اميل فاجيه» هذه الخصلة :

«حبه السخافة اللازمة الضرورية للشعر الحديث» يعتقد شاتوبريان أن الدموع التي تذرفها عينه لم تذرف عين أخرى مثلها . وأن كل شرور وآلام العالم لا يحسها الا هو في نفسه المعذبة المتأللة وانه الضحية التي اختارها القدر من بين الناس جميعا للألم والعذاب .

كان شاتوبريان يتمتع بكل أنواع الكبرياء فالكبرياء عنده تصلو وتسمو حتى تصل الى مرتبة الفضيلة ثم تهبط وتنحط حتى تصير لونا من السخافة والحمق والغباوة . أما النوع الاول من الكبرياء فيتمثل في استعفائه من مهامه الحكومية عقب اغتيال «الدوق دنهاين» ونزاهته واستقامته سنة ١٨٣٠ وأخيرا اخلاصه لقضية البوربون . أما كبرياؤه السخيفة فتتمثل في موقفه مع بوناپرت وكتابات عنه : «بوناپرت وأنا ملازمان مجهولان» أو سؤاله : « واذا كنت قدمت في هذه اللحظة واذا لم يكن هناك شاتوبريان . . فأى تغيير كان سيحدث للعالم ؟ »

كانت كبرياؤه هذه تقيه الطموح ، وبعبارة أخرى تقتل فيه هذه الغريزة المستحبة . هو يريد - ككل انسان - أن يظهر ويعلو ، ولكنه من ناحية أخرى لا (ينحط) الى الوسائل الكفيلة بتوصيله الى بغيته . . هو لا يريد الا ابراز اسمه واظهار عبقريته ولكنه لا يرسم لنفسه خطة عملية لذلك بل يقبع في ركن بيته منتظرا من يقدم اليه العالم . . هو ينتظر ولكنه لا يمد يده ! . . .

ومن ناحية أخرى كانت هذه الكبرياء بلسما لاعوجاجاته السياسية فهو يريد كل شيء ولكنه في نفس الوقت يحتقر كل شيء لانه يستطيع أن يهبط بالكبرياء الى أسفل وكانت هذه الكبرياء الواسعة (الغير محدودة) مصحوبة لديه بفقدان كلي للارادة . ولذلك كان شاتوبريان يحلم ويرغب ولكنه لا (يريد) .

هل من الصحيح أن شاتوبريان قد عجز حقا عن متابعة ارادته واطاعة أوامرها ؟ لانعلم لان شاتوبريان نفسه لم يحاول أو يجرب ومن ناحية أخرى لا يستطيع الباحث أن يستخلص من حياته عملا اراديا واحدا فكل أفعاله تقريبا ينقصها الطابع الايجابي وتتحل بالطابع السلبي ، ذلك الطابع الذي من شأنه أن يتقبل ولا يعطي ويتأثر ولا يؤثر . وقد ترتب على ذلك أن كل نشاطه - والنشاط يوسم دائما بالطابع الايجابي - كان لا يظهر الا في أفكاره وأحلامه . ولهذا أسس شاتوبريان عالما في مخيلته ونصب نفسه سييدا لهذا العالم . ولقد وجد في هذا السرور كل السرور ، وأحس أنه في غير حاجة لمخلوق ، ويشعر بالانسانية جمعاء تصول وتجول على مسرح نفسه . وهكذا قادته الكبرياء وأوصلته مخيلته الى اللانهاية .

والآن يحق لنا أن نتساءل : كيف يستطيع شاتوبريان الخروج من كل هذا ؟ وهو قد أدمج حياته كلها في نفسه ، وأخذ يعيش بغواطفه لأعماله وعقله ، ويطلب متاعه من الاحلام لامن الحقيقة . ولكن الاحساسات سرعان ما تنثلم وتحتاج الى إعادة البناء والتجديد باستمرار ، فأحلام نفسه وجها لوجه أمام العدم من جديد وهكذا عبر شاتوبريان طريق الحياة وهو يحمل على ظهره عبئا ثقيلا . . يحمل الآلام والأحزان ولقد أصبحت هذه الحالة طابعا له في كل كتاباته : دون شاتوبريان في مذكراته فيما يختص بساعة مولده داننى لم أعش الا ساعات قلائل ولكن ثقل الزمن كان قد رسم خطوطه فوق جبهتي .

كان شاتوبريان - لكي يتسلى بالآلامه - يجد لذة كبرى في تضخيم ومبالغة أسبابها . وكانت الكبرياء تأبى عليه الآلام العادية والشقاء المعروف . ولهذا السبب تراه يوضح في الجزء الاول من مذكراته الظروف المعاكسة وسوء الحظ الذي لازمه في حياته ولقد أطنب وأطال في شرح وتفصيل تجاربه في طنطنة ولغلة لسان . وحلل رغباته وآماله ، ولم يعجبه أن يظهر في مذكراته بمظهر الرجل الذي ينحني تحت ثقل لوم النفس أو تأنيب الضمير وأخيرا يحلل شاتوبريان حياته الباطنية وحياته الظاهرية دون أن يستطيع ارواء ظمأ عواطفه التي تحرقه وتلهبه . كان شاتوبريان يتمتع بذلك المفرط حاد في بعض النواحي الخاصة : وكانت

عبقريته السياسية لاتخلو من الادعاء والتظاهر فشاتوبريان على العموم لايمتاز - من الناحية الادارية - عن غيره من رجال الحكومة .

فهم شاتوبريان التيارات السياسية الهامة التي كانت تخضع لها فرنسا وأوربا : فقد كتب كثيرا عن «المسألة الشرقية» وقال انه سوف يكون لها مستقبل ديبلوماسى وكان محقا فى حكمه حين قال بوجوب تضامن مستشارى الملك شارل العاشر - فى تلك الظروف الاستثنائية التي تمخضت عنها الثورة - مع الاهالى . وكذلك قوله باستحالة محو نفوذ الصحافة ، أو كبت قوة تأثيرها فى الراى العام . فالصحافة ضرورية للأمة ، وحتى اذا نتجت بعض الشرور فمن الواجب أن يعيش الانسان بجانب هذه الشرور .

كانت الحرية متأصلة فى نفس شاتوبريان : حرية سلبية ولكنها حقيقية . فشاتوبريان - رغم المظهر الطنان الذى أحاط به نفسه ، لم يكن يقوم بدوره السياسى على الوجه الأكمل وتبعة ذلك تقع من غير شك على شخصيته وتكوينه النفسى . . . لقد منع شاتوبريان من اتمام ماكان يريد .

رسم لنا شاتوبريان فى مذكراته لوحات فكهة رائعة عن الحياة فى المفوضيات والسفارات وعن السفراء والوزراء ورجال الحاشية : فهذا هو مسيو «بورمون» صاحب المظهر الطريف الروحانى والانف الدقيق والأعين الجميلة الهادئة التي تشبه عيون الأفعى ! وهذا هو «لافيت» الذى يسره كثيرا أن يدس بأنفه فى التيارات السياسية «ويستنشق رائحة الثورات» وهذا هو مسيو «دى بوليناك» : لقد أقسم لى أنه يحب القانون الأساسى (كارتا) ، مثلى تماما . . ولكنه يحبه عن قرب أكثر !!

ويمكن القول أن ذكاء شاتوبريان رغم ذلك لايملا من شخصيته الا بقعة صغيرة اذا قورن بخياله الواسع الخصب فنحن اذا أخرجناه من حياته السياسية ومن مذكراته ، ونظرنا اليه فى واقع مؤلفاته الأدبية فقط ، أصبح من العسير علينا أن نميز فيه - كما يقول لانسون - الناحية الروحية أو نتوهم فى عقله ذلك الذكاء الذى رأيناه بل يبدو لنا سابحا فى بحر خضم يحاول أن يقتنص منه لآلىء الأفكار وصدفات المنطق المفهوم المعتدل فمحصوله الثقافى ، وطريقة دراسته واقامته الطويلة فى «كومبورج» كل ذلك لم يؤهله للتفكير . لقد قرأ فولتير وديدرو ، وجان جاك روسو ، والأنسيكلوبيديا (دائرة المعارف) : هذه هى كل المصادر التي نبعت منها أفكاره . وبالاختصار نجد شاتوبريان - بذلك الذكاء الذى يرتفع فوق المستوى العادى درجات قليلة - يخرج لنا أفكارا معتدلة . . لاتسمو الى أفق التفكير الفلسفى ولا تنحط الى تفكير العامة . وذلك لان هذه الافكار ليست الا انعكاسات مباشرة لعواطفه . وبمعنى أدق أنها ليست الا احساساته الشخصية وعواطفه الذاتية مصاغة فى عبارات أو مرسومة فى لوحات .

ان طبيعة ذكاء شاتوبريان ليست بالطبيعة الفلسفية أو العملية ، ولكنها طبيعة فنية ، ولذلك فهو يخلق الصور الرائعة ولا يخرج الافكار المنطقية . وهو فى انتاجه هذه الصور لايتبع قانون الحقيقة ولكنه يلزم

قانونه الفنى الخاص .. قانون الجمال ، فشاتوبريان قبل كل شىء هو
الفنان .. والفنان فقط .

عبقريّة المسيحية : -

هو ذلك الكتاب الخالد ، الذى قال عنه مؤلفه شاتوبريان : « انه
جاء بلسما وفى وقته » . ولقد صدق شاتوبريان فى قوله . فهذا الكتاب
كان بمثابة القبلّة للقرن الجديد المولود الذى ابتداءً يحبو فى دورة
الزمن .

كان من الواضح أن المسيحية فى حاجة ماسة الى من يرمم
هيكلها ويعيد اليها اعتبارها . فطبقة النبلاء فى القرن الثامن عشر كانت
قليلة التدين أو على الاصح كانت تعتنق التيارات (اللادينية) التى
وجدت أعظم الرواج فى سوق البلاد . وكذلك كانت الطبقة الوسطى
(البورجوازية) ، تلك الطبقة التى ابتدأت تخرج من ظلمات الجهل
الى نور العلم والمعرفة . كانت الحالة كذلك لان الفلاسفة كانوا قد
أخرجوا للناس معتقداً جديداً . جعل المسيحية فى نظر الجميع غريبة
فاسدة وحشية ، لا يؤمن بها الا قلة من الاغبياء .

وهكذا أصبح من اقدس الواجبات خلق احد المعتقدات القوية
المؤثرة ليضاد المعتقد الاول ويقف فى سبيله كالصخرة الشماء هذا
ما رآه شاتوبريان بجلاء ورأى أمامه الفرصة السانحة تدعوه وتلح فى
هذه الدعوة فلم يسعه الا القبول .

كانت فكرته الاساسية من وضع « عبقريّة المسيحية » هي أن
يثبت أن الديانة المسيحية من بين جميع الديانات هي الأكثر شاعرية ،
الأكثر انسانية ، ثم أنها هي الصق الديانات بالحرية والفن والادب التى
هي من ضرورات العالم الحديث ...

وانه لا يوجد أكثر قدسية من اخلاقها ولا أكثر محبة من اسسها
وقواعدها وتعاليمها ومذاهبها . فهي تنمى العبقريّة وتصفى الذوق
وتقوى الاحساس بالفضيلة ، وتعطى قوة وطاقة للتفكير ، وتقسم
هياكل نبيلة للكاتب وقوالب رائعة للفنان .

إذا نظر الباحث الى « عبقريّة المسيحية » من وجهة نظر الفلسفة
والمنطق وجد هذا الكتاب ضعيفا هزيلا . فشاتوبريان لم يستخدم
المنطق السليم أثناء دراسته ، بل نراه مولعا بالعلل الغريبة التى توصله
من غير شك الى معلولات غريبة أو أغرب . لقد كان شاتوبريان يكتب
ما يكتب وفى نفسه اعتقاد وفى قلبه اعجاب وبذلك استطاع أن يجعل
القارئ يعجب ... ويعتقد ؟

كان شاتوبريان يعتقد أن من يجرد الديانة من مسحة الفرابية
والبعد عن المألوف فإنه فى نفس الوقت يهدم قدسيتها ويخرب
روحانيتها . بل لقد ذهب الى أكثر من ذلك فقال ، كلما تعمق المرء

فى المسيحية رأى أنها ليست الا امتدادات الانوار الطبيعية والنتيجة
الضرورية لهرم المجتمع .

اثبت شاتوبريان وجود الله بواسطة عجائب الطبيعة . كما
اثبت خلود الروح بواسطة الاخلاق والعواطف . فما دامت اوكار
الطيور محكمة الصنع فالله اذن موجود .. وبعض الطيور لها هجرات
خاصة فالله اذن موجود ... ان التمساح يضع بيضه كما تضع
الدجاجة فالله اذن موجود ... لقد رايت ليلة جميلة فى امريكا فالله
اذن موجود ... غروب الشمس الجميل على البحر فالله اذن موجود ..
ان الانسان يحترم المقابر فروحه اذن خالدة .. !! »

يقترّب شاتوبريان هنا من برناردان دى سان بير ، ولكنه
سرعان ما يبتعد عنه بعدا شاسعا : فان الله الذى يتكلم عنه شاتوبريان
ليس هو الله المشتق من عالم الفكر المجرد أى أنه ليس هو الله
(النظرى) او (الفكرى) وانما هو رب الكاثوليكية الحى !

لم تكن دراسة شاتوبريان للدين دراسة ناضجة بل دراسة
طفولية . فنراه مثلا يقول فى معرض كلامه عن الكاثوليكية : فى اللحظة
التي توجد فيها الكاثوليكية - وليس الاعتقاد بالله - فان البرهنة
الغريبة سرعان ما تصبح مجموعة من الآراء والأفكار الفريدة : « لذلك
يجب أن نكتسب موهبة التجريد والا انزلقنا الى هاوية الايمان
بالمحسوس . ولم نتوصل أبدا الى الايمان بالمطلق الكلى . لقد ورث
الفرنسى من قديم مع عاداته ومدنيته الكاثوليكية ولكنه تخلص من
كاثوليكيته فى العصر الحديث لانه بدل أن يثبت ويبرهن اعتقاده الدينى
أخذ فقط ينعشه ويقويه » وهكذا يتدخل شاتوبريان لانقاذ الفرنسى
وارجاعه الى الكاثوليكية القديمة . فأخذ بلوحاته الطبيعية يوقظ
نفوس معاصريه وينعش فيها الامواج الروحية التى طال رقادها ،
ويوجه هذه الامواج لصالح الكاثوليكية .

لقد كانت دعائم المسيحية مشيدة من قرن مضى على افكار
غريبة شاذة . فحولها شاتوبريان بكتابه هذا الى افكار اخاذة متنوعة
فخمة !

يقول لانسون :

لسنا نعرف على وجه الدقة هل افلح شاتوبريان فى انتقاء
الوسائل التى تحقق له أغراضه من انشاء هذا الكتاب ام لم يفلح
ولكننا نعرف أن الكتاب نفسه قد قطع الطريق بسهولة الى قلوب
القراء وأثر فى نفوسهم اكبر الاثر وذلك لان شاتوبريان اقام هيكل
الاعتقاد على صرح فنى شعري .

ولهذا الكتاب اثره القوي فى عالم الادب من ناحيتين هامتين :

الناحية الاولى هى ناحية الكتاب التحليلية التى ضمنها شاتوبريان
عواطفه ووجداناته أى ضمنها عواطف ووجدانات الفنان الملهم والاديب
العبقري . وكذلك صورة الطبيعة ولوحاته الفنية التى رسمتها ريشته
وهى متأثرة بمشاهدات الرحلة فى بريتانى والعالم الجديد .

الناحية الثانية وتتلخص في تلك الصبغة الشاعرية المستحدثة التي شاعت في هذا الكتاب . فهذه الصبغة الشاعرية قد اكتسبت الكتاب طرافة خاصة تظهر عند مقارنته بما كتب وألف من كتب دينية من عهد المسيح الى اوائل القرن التاسع عشر . فكل هذه الكتب اساسها المنطق الجامد ، والتقيد بالتاريخ وحوادثه . أما « عبقرية المسيحية » فيمتاز بذلك الاطار الفنى الشاعرى الذى سبق الإشارة اليه !

آتالا ورينيه والشهداء :

تصادمت قصة شاتوبريان « آتالا » بتيارين معارضين : أحدهما تيار نقد شديد لاذع ، وعدم ارتياح لظهور مثل هذه القصة ويمثل هذا التيار فئة الفلاسفة الذين قالوا :

« ان الاب «سافويار» يتكلم بأكثر حرية وأكثر فلسفة من الاب أوبرى » الذى هو فى الحقيقة متعصب دينى لا أكثر ، أما التيار الآخر فهو تيار الإعجاب الشديد والرضى التام عن « آتالا » . ويمثل هذا التيار النساء : فقد وجد فيهن شاتوبريان ضالته المنشودة . لقد استطاع بسحر بيانه ان يحرك عواطفهن ، ويضرب على الوتر الحساس من قلوبهن . لقد بكين وبذلك أعربن عن حبهن « لآتالا » ومؤلف آتالا ..

وكما أن شاتوبريان قد اخذ مادة قصته « آتالا » من سياحته القصيرة الامد في شمال أمريكا . فقد استخلص مادة قصته الثانية « رينيه » من قصر « كومبورج » . ان « رينيه » بطل القصة هو نفس « رينيه » دى شاتوبريان ففى هذه القصة يتحدث شاتوبريان عن نفسه وعن أخته لوسيل فهو قد أمضى فترات طويلة في بهو القصر القديم مع أخته . ولذلك خيل اليه انه قد حدد شخصيتها ، ولكن الحقيقة غير ذلك تماما . فرينيه قد حدد شخصية أخته ولكن بطريقته الخاصة . لقد رسم هذه الشخصية كما يتخيلها فى أحلامه التي تشوبهها الاثرة لا كما هى فى الواقع . والآن لنعد الى البطل « رينيه » ، ان السر فى متاعبه وحياته المملوءة بالاشباح الشاحبة المزعجة وفى لياليه الطويلة الممهدة يرجع الى أن الحب ينقض روحه الواسعة التي تحتوى العالم كله .

ولقد أدرج شاتوبريان قصته هذه « رينيه » بشجاعة زائفة فى كتابه « عبقرية المسيحية » عام ١٨٠٥ .

بقيت كلمة نقولها عن قصة « الشهداء » . حاول شاتوبريان فى هذه القصة أن يواجه عالمين : العالم القديم والعالم الجديد . . . عالم الاتحاد وعالم المسيحية . وبعبارة أخرى أراد ان يبين لنا طبيعة الرجل القديم المستوحش ، وطبيعة الرجل المتمدين أى المتمتع بالمدينة الأوروبية . والظاهر أن شاتوبريان قد تلقف هذه الفكرة من جان جاك روسو . ولكنه لم يتركها على حالها بل وسع دلتزتها وأضاف اليها عناصر جديدة .

لم تنجح قصة شاتوبريان هذا النجاح الذى كان يتوقعه لها فشاتوبريان لم يدرس ذوق القراء فى زمنه ولذلك لم يقدم له - فى هذه القصة - ما يرضيه . لقد وجد القارئ فى كل صفحة من صفحات هذا الكتاب الكثير من الاساليب الملتوية القاسية المتسلطة ان صح هذا التعبير ، والصيغ الجامدة الشاذة . ولهذا لا يوجد مجال لمقارنة « الشهداء » ، « باتالا » التى تمتاز بأسلوبها البسيط وصيغتها المألوفة .



لوحات شاتوبريان الطبيعية : -

كان شاتوبريان يحوى العالم الخارجى ... عالم الطبيعة الحية فى داخلية نفسه . فليس من المستغرب اذن أن يعبر عنه فيحسن التعبير ، ويصوره فيجيد التصوير فهو يترجم ما تنقله اليه الحواس كما يترجم العواطف المستعرة فى قلبه . وهكذا كتب لشاتوبريان - وهو يتمتع بهذه الموهبة الوصافة - الخلود فى معظم انتاجه . كان لشاتوبريان حساسية الرسام ، فنجده يخترق بعينه وروحه مظاهر الجمال حتى يصل الى مستقرها الباطن . فاذا ما عرف كنه هذا الجمال وجوهره نقله للقارئ فى صور بيانية أخاذة ، تجديث نفس الاثر الذى تحدثه لوحة رسام عبقرى .

ومن هنا يمكن تفسير ضعف شاتوبريان فى التحليل النفسى : فهو (يرى) الأشخاص ولكنه لا يحاول تحليل خلجاتهم النفسية وتياراتهم العاطفية . وبمعنى آخر هو لا يستلهم منهم الفكرة النفسية أو الخلقية بل هو قادر فقط على استخراج فكرة الجمال منهم ، فلوحات شاتوبريان اذن التى رسم فيها أشخاص قصصه وأبطال رواياته هى لوحات فنية جميلة مؤثرة ولكن تنقصها ظلال التحليل النفسى . شاتوبريان عاجز مقهور أمام الطبيعة : بمعنى انه يصورها كما يراها بعينه من غير تغيير . فوصفه لليل مثلاً مختلف متغير لا تتشابه فيه صورتان قط : ليل البحار .. ليل أمريكا .. ليل اليونان .. ليل آسيا .. ليل الصحراء ..

ويرجع هذا الاختلاف الى سبب بسيط هو اختلاف مناظر الليل فى الطبيعة نفسها . وكذلك كان وصفه للمناظر الطبيعية الاخرى : من غموض غابات أمريكا ، وفخامة جبال اليونان ، والسماء المنخفضة الملبدة بالغيوم فى « جرمانيا » ثم سماء ايطاليا المشرقة الضاحكة . وأخيراً كل الصور التى قدمتها الطبيعة والانسان لعينه . لقد صور كل ذلك بأسلوبه الخاص ، ولكن من الصعب تحليل طريقته فيجب رؤية صورته للشعور بها فهذه الصور بما فيها من تشبيهات واستعارات ليست من الادب تماماً ، بل هى أقرب ما تكون الى الرسم والتصوير !

نفوذ شاتوبريان : -

يقول النقاد انه يوجد فى انتاج شاتوبريان أجزاء برمتها غير خليقة

بالحياة . مثل افكاره الفلسفية ، وتعابيرہ المتسلطة الجامدة ، ثم طريقته في مزج العنصر الكلاسيكي بالعنصر الرومانتيكي ، وأخيرا تفاهة نظريته ودراسته للمدنيّتين الاغريقية والرومانية .

أعطى شاتوبرمان لجماعة مذهب الادب الابتداعي دروسا في المذهب الفردي ، فنحن نعلم أن أبطال ميدان الادب الرومانتيكي - وهم ضحايا ذلك القدر القاتم - يسرهم الاستسلام والخضوع دائما لاحكام الحياة وأوامر القدر . ففي قصة « رينيه » نفسها يجد القاريء صدى للثورة وللجريمة ، ويحس بذلك الشعور ... شعور من يناضل وهو أعزل ضد المجتمع : « هو يشعر أنه بريء ، ولكن أدانة القانون له جعلته يعتقد بانتصاره على النظام الاجتماعي ! »

إن المتاعب والبلبال وكل أمواج العذاب التي تجتاح نفس شاتوبريان ، كل ذلك يعيد لأذهاننا صورة حياة أخرى تشبه هذه الحياة ... صورة حياة شاعر الحب والجمال لامارتين . فالقاريء لانتاج شاتوبريان يحس أن هذا الانتاج لا ينقصه الا شعر لامارتين . وشاتوبريان حينما يقرض الشعر نخاله يملأ تلك الهوة التي تفصل بين « فونتان » أو « شينيدولي ، ولامارتين » .

ولقد تأثر الشاعر الكبير فيكتور هيجو بشاتوبريان ، وذلك من ناحية أوصافه الرائعة وشعره الحماسي ثم تبحره التاريخي . وليس من المستبعد أن يكون شاتوبريان قد بنى لهيجو الهيكل الاول لبعض قصصه الخالدة . فانه يوجد في خيال « الشهداء » فكرة « قصة العصور » .

إن فن رسم اللوحات الطبيعية سواء في القصص أو التاريخ أو الفلسفة ، ذلك الفن الذي تمثل في كتابات ساند ، لوتى ميشليه ، ورينان . يرجع الفضل في اكتشاف منبعه الى شاتوبريان أولا ثم سرعان مافاض هذا المنبع في كتابات هؤلاء الاعلام الذين ذكرناهم .

فشاتوبريان بدوافعه الالهامية استطاع أن يشيد هيكل الادب وصرح الفن والجمال على أنها أشياء جوهرية .

لقد أثر أسلوبه في كثير من الأدباء : فلقد قدم عبارته في قوالب مختلفة . فتارة سهلة وتارة قاسية ومرة متماوجة ثائرة ومرة فخمة هادئة . كما أن أسلوبه يمتاز بميزة أخرى : فنشر شاتوبريان يمكن أن يعد من الشعر المرسل الذي لا ينقصه الا الوزن لأنه يحدث نفس اثره الفني .

وأخيرا يجيء دور التاريخ . تأثر بشاتوبريان الكثير من المؤرخين بل يمكن القول أن شاتوبريان قد (خلق) بعض المؤرخين : « فثبري » قد أصبح مؤرخا حينما قرأ كتاب شاتوبريان « الشهداء » ، وإذا لم يوجد شاتوبريان فهل كان يوجد المؤرخ العظيم « ميشليه » ؟

الى هنا تنتهى دراستنا لشاتوبريان . . لذلك الاديب الفنان الذي عبر عصره محوطة بكل ألوان المجد . لقد كان وجوده في أذهان معاصريه كأنصاف آلهة اليونان ولكنه رغم ذلك كله لم يستطع مطلقا أن يطرد أشباح المتاعب والاحزان التي جعلت قلبه فريسة لها . . فقد سكنته مدة ثم تركته خاليا خاويا !!!

برناردان دی سان پییر

(۱۷۳۷ - ۱۸۱۴)

(م ۹ - من أعلام الأدب الفرنسي)

عناصر البحث

طفولته - شبابه - خياله ومثاليته
رحلاته - دراساته في الطبيعة - بول وفيرجينى

يحتل هذا الكاتب في الادب الفرنسى مكانا عظيما ، يلهم التقدير والاعجاب ، ويدفع الاديب الى تتبع دقائق حياته ، والوقوف على الخطوات التى أبلغته بعد الصيت وخلود الذكر وعلى الرغم من قلة إنتاج برناردان بالنسبة لغيره من أفذاذ الكتاب والفلاسفة ، فإنه يعد من الفرسان المبرزين فى حلبة الادب ، ويعتبر زهرة نضرة فى طاقة الادب اليانع فى القرن الثامن عشر .

ويعتقد بعض مؤرخى الادب الفرنسى ، أن القرن الثامن عشر حلقة متممة للقرن السابع عشر . ولكنه فى الواقع ينفصل عنه ، اذ يتصل حبله بثورة جارفة ، وبلون من ألوان الادب يسمى الادب الابتداعى أو (الرومانتزم) . ومن يتتبع فى تأمل ودقة تطور الادب فى القرن الثامن عشر ، يصادف كثيرا من الاشياء التى تعتبر اعدادا وتمهيدا لمستقبل جديد ، أو تطور طريف من اطوار الادب .

والكاتب الذى نحن فى شأنه ، ينفصل انفصالا لا يكاد يكون تاما عن الماضى . فلم يعاصر جان جاك روسو ويأخذ عنه ، ولكنه يأخذ من روسو ، كل ما جعل من هذا الاخير أصل الادب الابتداعى .

وقد ولد جاك هنرى برناردان دى سان بيير ، فى التاسع عشر من شهر يناير سنة ١٧٣٧ بثغر الهافر ، بين أرض تيسر الرزق وتسعد الحياة ، وبحر يجذب اليه الطامحين ويغرى بالمغامرات . ويقال ان أباه نيقولا يضرب بأعراقه الى رجل عصامى (بورجوازي) مشهور فى مدينة كاليه ، من ذوى الالقاب يدعى ايسيتاشى دى سان بيير . ولم يكن نيقولا من ذوى الثراء ، أو يملك من متاع الحياة الشئ الكثير ، ولم يستطع اثبات نسبة الى ايسيتاش ، ولهذا كان يكثر من الجهر بهذا النسب فى حماسة عنيفة . وكان برناردان أكبر اولاده ، وهم ثلاثة ذكور واثنى . وكانت امه تقيه ساذجة توفيت فى شبابها ، وقد نشأته فى لين يبلغ حد الرخاوة ، ونمت فى دخيلته عن غير عمد ميله الى المغامرة .

والذين يقرأون كتب برناردان ، لا يستطيعون الا أن يتخيلوه رجلا وادعا لطيفا ، تترقق على شفثيه بسمة صافية تشع الرقة والحنان . ولكنه فى الواقع ، كان عصبى المزاج ، قلق النفس ، متشككا مهموما ، عزوفا عن اللهو والفكاهة طموحا مغامرا ، أثرا فى أنفه ، متمللا فى الحاضر ، مولعا بالمستقبل حتى اذا أصبح حاضرا برم به وسخط عليه . وكان الى ذلك كثير الطلب والالاحاح فيه حتى اذا تحقق طلبه ، لم يرضه ما ترتب عليه من معروف .

وكان يحب الطبيعة والطير والازهار . فكان فى الثامنة من عمره يزرع حديقة صغيرة ، ويكى للام الحيوان ، ويخفف عنه أوجاعه قدر المستطاع .

وقبل أن يبلغ التاسعة من عمره ، ذهب به أبوه الى (روان)
لتحصيل العلم ، ولما بلغ التاسعة انغمس في قراءة مجلد ضخيم عن حياة
(اباء الصحراء) .

وفي صباح أحد الايام ، وقد خيل اليه أن سيعاقب في المدرسة
ذهب الى الازباض ومعه غذاؤه في سسلته ، حتى اذا بلغ مدخل غابة
صغيرة صورها لنفسه صحراء واعتزم العيش فيها على مثال
القديسين ، وأيقن أن الله عز وجل ، سيرسل اليه طيرا في اليوم
اثنائي تحمل اليه من السماء رزقا حسنا . ولما خيم الظلام ، ونامت
الاطيار خرجت الحادمة تبحث عنه في قلق وفزع حتى وجدته مستلقيا
على العشب ، لاهيا بأحلامه عن العالم .

نقله والده بعد ذلك الى (كاين) . وعهد الى قسيس يتولى
تعليمه ، ولكن برناردان ضاق ذرعا باللغة اللاتينية التي يلقيه القسيس
اياها . وكان يأسف أشد الأسف على فراق أمه وأخته وخادمتيه .
ويفكر ودموعه منهمة على خديه ، في سعادة البغاء والكلب اللذين
يعيشان في بيت أبيه دونه . أي أنه شعر في أعماق نفسه ، وهو بعيد
عن اهله ، بأنه بائس . وبعد مضي عشرة اشهر ، سعت عرابته او أمه
الروحية لدى أبيه حتى عاد الى البيت ولم يكد يستقر به المقام ،
ويستمتع بحديثه وكتابه عن اباء الصحراء ، ويسمع لعرابته وهي تقص
عليه أنباء شائقة عن عصر لويس الرابع عشر ، حتى أخذه راهب من
الجيران في رحلة الى بلاد النورمانديا . وكان هذا الراهب قاصا لبقا
يملك على النفس مشاعرها . فأحبه برناردان ، وخطر له أن يتبع
مذهبه ، ويكون من شيعته . بعد ذلك بقليل أعطته عرابته قصة
(روبن صن كروزو) ، فأكب على تلاوتها . وما أن استوعبها ، حتى
نسى كل شيء سواها ، ولم يعد يرى من حوله غير جزيرة مقفرة
موحشة ، يفلح أرضها العذراء ، ويغرس فيها مختلف النباتات ، محاطا
بصنوف متقاربة من الاشجار على صورة سياج يدفع عن غرسه عدوان
الرياح . وكان هذا الخيال ينبوع مسرة نفسية له طويلة الامد . ولكنه
لما بلغ الثانية عشرة من عمره ، شعر بأول ألم في القلب متأه وحديثه
الخيالية . وأحس برغبة ملحة في أصدقاء ونساء وحركة ، وشاقه
طموحه الى السلطان والحكم ، وظل طيلة عمره يسبح في حلم الطفولة
هذا . وطالما سن هذا الطموح المحب للبشر ، برغم نفوره من الاجتماع ،
قوانين سرابية وطبقها على مخلوقات خيالية . وأنه لفى حالته هذه
اذا عمه الربان جوديو ، يوشك أن يرحل بسفينته الى جزر المارتينيك .
فتوسل الشاب برناردان الى أبيه ، أن يسمح له بالسفر على تلك
السفينة ، فقبل أبوه ، وسافر الشاب ممتلئ النفس بالاماني والامال .
مؤمنا بأنه سيجد جزيرة يقيم نفسه ملكا عليها ، ولكن دوار البحر ،
وبطء السفر الممل ، وغلظة الربان ، وخيبة آماله جعلته يعود الى
وطنه ساخطا على الناس والحياة . ولم يدر أبوه ماذا يصنع لهذا
الولد القلق الذي لا يستقر ولا يرضى . فنصحت له عرابة أبيه ، بأن
يرسله الى الاء اليسوعيين في (كاين) فوافق على ذلك وما أن قضى
برناردان بينهم بعض الوقت ، حتى أحبهم ، او على الأرجح احب فيهم

اعمال المرسلين منهم الى البقاع النائية السحيقة وسير استشهادهم في سبيل نشر دعوتهم ، ورأى نفسه في الخيال كعادته يتنقل من جزيرة الى أخرى ، يهدى الجاهلين والمتوحشين ، ويعرض نفسه لكثير من المحن والاعطال . ثم اعلن ذات يوم ، لكبير الابطاء اليسوعيين ، رغبته في ان يكون رحاله ومبشرا وشهيدا ، واصفى اليه الرجل وعلى شفثيه بسمة هادئة ثم وعده بأن يوجهه الوجهة التي تبلغه ما يصبو اليه ، ولكنه كتب الى ابيه برغبة ابنه ، فخشى الوالد ان يستمر برناردان في جنونه ، فاستدعاه ولم يجد عسرا في ارجاعه عن عزمه ثم ادخله معهد (روان) ، وهناك درس الفلسفة ونال الجائزة الاولى في الرياضة سنة ١٧٥٧ .

وفي ذلك الوقت أوصد في وجهه بيت ابيه ، اذ توفيت أمه ، وتزوج والده ، وكف عن امداده بالمال . وبعد ان امضى الفارس الصغير - كما كان يسمى نفسه - عاما في مدرسة هندسة القناطر والجسور ، التمس عملا في ادارة ، المدرسة الحربية وكانت بلاده في حرب مع أعدائها . والحق بهيئة أركان الحرب ، بمرتب مرض ، وأرسل الى (دسلدورف) وخاض المعارك مدفوعا بأمال كبيرة . وحدث ان هزمت قوته في احدى المعارك ، فاضطر الى عبور نهر سباحة ، ورأى ذلك النهر ، وما يعترض مجراه من الصخور مغطى بأشلاء الجند فهاله هذا المنظر البشع ونال من نفسه كل منال ، ولم يكن يتصور ، وقد قرأ كتب (تيت ليف) المؤرخ الروماني ، ان الحرب تبلغ هذا الحد من الدمامة والفظاعة ، ولما اجهر بأفكاره هذه غضب عليه الرؤساء ، ففصل من عمله ، وأعيد الى بلده .

رجع الى بيت ابيه ، واستمتع اياما بالراحة والهدوء وطيب العيش ولكن امرأة ابيه ، افهمته في كلمات ملتوية ، ان بقاءه غير مرغوب فيه ، فغادر البيت واخذ سمته الى باريس خالى الوفاض .

وفي ذلك الحين ، اى عام ١٧٦١ ، كانت جزيرة مالطة مهددة بالغزو من قبل الاتراك فسافر برناردان الى تلك الجزيرة ، ولكن ضباط الحامية لم يقبلوه ضابطا بينهم ، فاضطر الى العيش على نفقته ، عيشا كله ضيق وضنك وسخط وتململ . واعتقد اهل الجزيرة انه مجنون ، فأصابوا نفسه المتوجعة بالسخرية والتندر . ومضى وقت طويل ولم يغز الاتراك الجزيرة .

عاد برناردان الى باريس ، بعد ان صادف أهوالا في البحر كثيرة ، واستأجر غرفة في شارع (ماسون) ، الذي كان راسين الشاعر العظيم يقيم فيه مع زوجته وأولاده في القرن السطابع عشر . ثم زار كثيرا من ذوى النفوذ ، وكتب اليهم الرسائل سائلا اياهم عملا ، ولكنه لم يظفر منهم بما يكفل له الرزق . واستبد به الغوز ، حتى ان صاحبة البيت توعدته بالطرد وامتنع الخباز من اعطائه ما يتبلغ به ولما تملكه اليأس من حكومة الملك ، علادت الى ذهنه فكرة انشاء جمهورية ، فاقترض بعض المال ، وباع ملابسه وسافر الى بروكسل ثم الى لاهاى ثم الى روسيا ، وكانت كاترين الثانية قد اعتلت العرش بعد مقتل زوجها . ومكث هناك أربعة أعوام في خدمة حكومة لايجيها ، اذ كان قد ساعده جنرال

فرنسي في خدمة روسيا ، على ان يلتحق ملازما ، بسلاح الهندسة الحربية . ولما نفذ صبره ، وامتألت نفسه بأوهام جديدة ترك منصبه وسافر الى بولانك حيث رأى منظر العبودية تماثل مارآه منها في روسيا فمكث في قارسوفيا مدة ، وحدثت له عدة حوادث منها السوء الاليم ، ومنها الرقيق البهيج ، الذي يتصل بحب اميره بولنيه له . ثم زهدت فيه الاميرة فافترقا ، وسافر الى ساكس ثم الى برلين وبوتسدام حيث لم تقع عينه على غير الجنس والثكنات الفخمة . وهناك طلب من فردريك ان يمنحه رتبة الصاغ في جيشه فرفض سؤله . وبعد رحلات كثيرة عديمة الجدوى ، عاد الى فرنسا ولم يصل الى تحقيق شيء من غرضه وآماله ، لانه لم يثابر في عزم على تحقيق شيء منها .

ولما نزل من السفينة في الهافر قابلته خادمتها العجوز فأكرمت وفادته ، وذكرته وهي تمسح دموعها بطرف مبدعتها بما كان منه في الغابة حيث أراد ان يتخذ منها في طفولته صومعة كأباء الصحراء .

ثم توجه الى باريس ، واستأجر غرفة عند قسيس في ضاحية قريبة من فرساي . وعاش في القرية مع كلبه بعيدا عن الناس ، الذين يجرح الاختلاط بهم مشاعره . ومن هناك كان يرسل للحكومة في فرساي ، مذكرات لم تطلب منه ، ويطلب بتعويضات لا حق له فيها . وشعر في دخيلته شعورا غامضا ، بأنه يملك القوة على اتمام أعمال غير عادية . وتولد في نفسه ، من جراء شعوره هذا ، قلق شديد دفعه الى التردد المذل الاليم على مكاتب الحكومة والجهر بالشكاية الصارخة في كل مناسبة ثم تبسم له الحظ فعين مهندسا ملكيا في جزيرة مورديس ، وسافر معه كلبه وكتبه وأحلامه ، وسره أن يحمل الانجيل ، ودائرة المعارف (الانسكليوبيديا) الى اقوام يعيشون عيشة بدائية ، وخيل اليه أنه سينشئ الجمهورية التي يصبو اليها وقرر في نفسه منع تداول الذهب منها ، لأنه أصل المساوىء ومصدر الآلام والشرور ، واقامة الاعياد الرسمية في المواسم الزراعية ، ونشر السلام والوثام بين أهل الجزيرة ، ثم بين أهل المعمورة جميعا وبينما هو سابح في هذه الاحلام المفرية على ظهر السفينة ، اذا رئيس البعثة يسر اليه أنه مستعمر في الظاهر فقط ، وأن مهمته الحقيقية هي جمع عبيد سود لبيعهم . فلما سمع برناردان ذلك ، تهالك في نفسه وهاله الامر وتعاطمه ، وأيقن أن مواطنيه يريدون أن يسرقوا منه رعاياه أى رعايا الفضيلة المشتهاة !

لم يكن برناردان محبنا لركوب البحر ، وكانت الرحلة شاقة تفشى أثناءها المرض بالملاحين عند مضيق موزامبيق ، فوضعوا على ظهر السفينة أملا في أن ترد عليهم أشعة الشمس قوتهم وتمسح ما بهم من نهكة الداء . ولكن كثيرا منهم استوفوا أنفاسهم في اطار اليم ولما وطىء برناردان أرض الجزيرة ظهرت له لأول وهلة قبيحة قاحلة كثيرة ، الصخور خشنة المنظر ، على النقيض مما كان يتخيلها ، ولم يجد منها من الامكنة اللائقة قليلا الا (بورلويس) . ولم يلبث الا قليلا حتى عاد سخطه الى الاستيلاء على نفسه ، وأصبح يرى السعادة ، في جزء

صغير من الارض ، ومنزل متواضع عند أبواب باريس . وتمنى وهو يعاني حرارة الشمس الافريقية أن يعيش في ثلوج فنلندا وليس من شك، في أن هذا القلق قديم لازم الانسانية في جميع ادوارها . قال (أوروديس) الاغريقى ، وصاحب القصص التمثيلية الخالدة « انك ايها الانسان سريع التغير ولا تستمتع بشيء ، ما تراه أمامك لا يعجبك وتفضل عليه ما هو بعيد عنك . حياة الناس كلها ألم . ونحن لعب تلهيها أكاذيب في غير طائل » .

حزن برناردان وشكا كعادته ، وكتب كثيرا من الرسائل المريرة، وتوجع لحال العبيد السود وبؤسهم . ولكن الطبيعة سحرته، فجلس خلال الجزيرة وسار على العشب والرمال الرخوة الندية عارى القدمين، وتأمل في أعجاب أشجارها وطيرها وحيوانها . وتذكر وهو في نشوته هذه الاميرة البولونية التى سقته كؤوسا مترعة من رحيق الحب الممتع، فامتزجت في نفسه صور الحب بصور الطبيعة ، وبقيت كأمنة حتى اتيح لها الظهور في قصته الخالدة « بول وفرجينى » .

وبعد أن اقام في الجزيرة عامين ، عاد الى باريس وطبع مذكرات رحلته في كتاب يشتمل على علم بسيط ووصف رائع ، ولكن الجمهور لم يقرأ هذا الكتاب ، وكل ما أفقده برناردان منه ، أنه فتح له ثوى (اى صالون) الانسكلوبيديين .

اتصل برناردان بهؤلاء العلماء ، والصفوة النخبة ، ولكنه بعد قليل شعر بأنهم لا يقدرّون علمه وصدف عنهم وتوحش .

لم يعد يأمل في إنشاء جمهورية على ساحل بحيرة ، أو في جزيرة نائية وقرر أن يضع كتابا ضخما عن الطبيعة وشرع فعلا في تحقيق رغبته هذه سنة ١٧٧١ . وفي ذلك الوقت اتصل بروسو ، ووجد فيه استاذة وتوثقت بينهما الصداقة ، ولكنهما كانا يتشاحنان كثيرا ثم لا يلبث أن يجمعهما الصلح بعد قليل . وكانا كثيرا ما يستريحان معا، ويتباحنان في الالهية والفضيلة والطبيعة ، ثم يصمتان ليتأملا غروب الشمس أو تسترها بالسحب .

وكان برناردان في حادثة يرهق صديقا له في وزارة الخارجية يدعى هينان بطلب المساعدة ، حتى تعوضه الحكومة وكان يفضل طريقه تعويضه ثم يرفض فى كبرياء ما طلبه فى اصرار ولكن رفضه كان شكليا ، اذ كان يقبل بعد رجاء أى أنه كان من طبعه أن يقبل المعروف الذى يلح فى طلبه بعد أن ، يرجوه مسديه . وحدث ذات مرة أن كثر العمل على هينان فظل أياما لا يرد على رسائل برناردان ، فما كان من هذا الا أن غمر صديقه باللوم والتقريع ولما ضاق هينان ذرعا به ، كتب اليه يقول « انك طيب القلب ، ناصع السريرة ولكنك فى بعض الاحيان فيمنا يظهر ، تتخذ صديقك روسو قدوة ومثالا ، وهو أكثر المبطلين لغوا ! » .

أصبح برناردان كأستاذة روسو لا يرى من حوله غير الحسد والخيانة والاضطهاد ، وكانت البدعة الشائعة ان يكون الانسان تعسبا

بألسنا ، والاعتقاد ، الذي نشره روسو أن الفضيلة والبؤس صنوان لا يفترقان أصبح رايًا مبجلًا ولم يقف به الامر عند هذا الحد ، بل أصيب بمرض غريب فكانت تمر ببصره بروق تزيه الاشياء مضاعفة ومتحركة ، حتى أنه يرى في الافق شمسين! واستولت على نفسه الوان من الفزع لا يعرف لها سببا ، ولم يعد يستطيع عبور نهر السين دون أن تملكه رعدة ولم يعد يجرؤ على اجتياز حديقة بها حوض ماء ، أو يمكث بغرفة بها كثير من الناس وعلى الاخص اذا كانت مغلقة النوافذ والابواب وحين كان يجتاز حديقة عامة ، يخيل اليه أن المستر يضين يرمقونه بنظرات شرسة ، ويسخرون منه ويتمنون موته ولكنه حين يرى الاطفال ، يمرحون ويلعبون ، ويسمع صراخهم وضحكهم كان يهدأ ويطمئن .

وفي سنة ١٧٨٤ ، أتم برناردان كتابه « دراسات في الطبيعة » وعرض المسودة على كثير من الناشرين فرفضوها . فلم يجد وسيلة لنشر كتابه غير الاقتراض ، وطبعه على نفقته الخاصة ، ولما ظهر الكتاب، نال نجاحا عظيما ، وأصبح برناردان المغمور بالأمس ، نابه الذكر فجأة ، وكان حينذاك في السابعة والأربعين من عمره .

ان الجماعة كانت تخيب امله ، وتسبب له الضيق والملل، فالقى بنفسه في احضان الطبيعة . وتأملها وترجمها وفقا لحالة قلبه ، وحقق فيها حلمه الخاص بالنظام والانسجام والطبيعة الشاملة التي اخطأت الجماعة طريق الوصول اليها .

وكان الناس ، في عهد لويس السادس عشر يعجبون بالطبيعة في الحدائق المنسقة على الطراز الانجليزي ، ويبتهجون بمنظر الاشجار العالية المطلة على الغدران الصناعية ، ولذلك استقبلوا كتاب برناردان، استقبالا جميلا ، اذ وجدوا فيه مناظر وأحاسيس ملائمة لأذواقهم معبرة عما في نفوسهم . وفضلا عن ذلك فان هذه الدراسات التي اخرجها برناردان بعيدا عن التاريخ الطبيعي ، وعن المعامل والمكتبات كان يستطيع كل فرد أن يقرأها ويشعر بها ويستخلص منها ما يلائمه .

وقد شرح برناردان الطبيعة ، دون أن يكون عالما ، ودون أن يلقي باله الى العلم والذي قرأ كتابه ، يتبين في سر بعد المؤلف عن الاختصاص العلمي ، ويلمح أثر روسو واضحا في شرح الألوهية وفي فلسفته الاجتماعية : أي بغضه للتفاوت الاجتماعي والعظامية (الارستقراطية) وحبّه للأنسانية والفقراء ، وكلفه بالبساطة وتحمسه للفضيلة . ولكن برناردان ، وضع كل ذلك في قوالب ساذجة لا تصل في قوتها الى قوالب أستاذه ولا يصعب على من ينظر في هذا الكتاب ، ويقرأ هذه الدراسات كما يقول ألتاتول فرانس أن يرى خلالها عناصر كتاب خالد، اخرجته (شاتوبريان) فيما بعد هو « عبقرية المسيحية » . ويثبت هذا الرأي ، حين يقرأ الانسان في الدراسة الحادية عشرة الفصل الخاص بمهاجرة الحيوان ، اذ يجد أن شاتوبريان قد اغترف من طريقته وفكرته ، ويجد أن الافكار الفلسفية البسيطة السطحية التي ذكرها برناردان قد صاغها شاتوبريان قوية عميقة . وهما يتشابها في القوة.

العجيبة على التقاط المناظر وتصويرها على القرطاس . ولكن برناردان يختلف عن الآخر في أن هذه القدرة عنده تفوق بكثير قدرته على فهم الأفكار واستيعابها والتعبير عنها فهو فيلسوف سطحي ، ولكنه مصور ماهر عظيم فقارئ «دراسات في الطبيعة» ليشعر بسحر شديد لأنه يتنقل بين تأثيرات حسية خالصة وصور شتى من الأصوات والألوان والحركات . « حقا أن المؤلف يشرح الكون شرحا بعيدا عن حقائق العلم ولكنه تأمل المخلوقات تأملا عميقا ودفعنا الى تأملها مثله فدراساته تعتبر مادة قيمة للفن ونماذج نفسية للفنان ، لأن وصفه من الدقة بحيث يظهر الأصل في أبهى وأفصح صورة . ولا غرو في ذلك ، ففي أذنه صوت الغابات ، وفي عينه سحب المناطق الحارة الملونة فكان منقطع النظر في وصف هزيم الرياح وعواصف البحر وزبد الأمواج ، وتجمع السحب ، وتفرقهما وأحمرار الشفق وأسوداده . فهو أمام الطبيعة لا يكون إلا فنا خالصا ، ويختفي فيه الرجل الساذج بتفاؤله وإنسانيته » .

وقد سلك برناردان عن عمد طريقه الى ثورة لفوية ، إذ أنه كان في حاجة الى كلمات فنية خالصة يعبر بها عن ألوان وأنواع من النباتات والحيوان رآها في رحلاته . لقد نبه روسو الناس الى الطبيعة ولكن برناردان جعل القارئ يشعر شعورا خالصا دقيقا ، وهذا شيء جليل القدر ، يدين به الأدب الى هذا الكاتب .

وفي سنة ١٧٨٨ وضع برناردان قصة صغيرة ، أو مفزلة رائعة سماها « بول وفرجينى » تشتمل على الفلسفة الساذجة التي اشتملت عليها « دراسات في الطبيعة » مع تحليل نفسى قصير . ولما قرأها قبل نشرها في بيت « نكر » وزير لويس السادس عشر المشهور ، وحضر القراءة زوج الوزير ، وبوفون ، وجاليانى وتوما . وبعد قليل نظر بودون فى ساعته وانصرف ونام توما على مقعده ، وملت مدام نكر فخرج المؤلف يائسا حزينا ولكن الجمهور لم يجد الملل والضيق ، بل وجد الروعة والسحر .. فبكى !

وفي الحق أن القصة تاريخ مؤثر لطفلين من أصل أوروبى ، تحابا في براءة وصفاء على أرض عذراء وفي جزيرة موحشة وكانا جاهلين فقيرين بعيدين عن كل مدنية وليس لهما اتصال بالجماعة ومحررين من الأوضاع المستبدة والاحتياج الكاذب والتشوف الباطل . أقام برناردان لهذين الطفلين عشا بديعا في جزيرة موريس التى أثارت استيائه لأول وهلة بما حوت من بؤس الاستعباد ، والتى رسمها فى قصته فى عظمتها البدائية الرفيعة ، وجملها بخيال شعري رائع ، وانهشها بذكرى حبه البعيد فى فارسوفيا ، ونشر عليها روح الأشف على ما لم يدركه والحنين الى الشيء المفقود وقد زان الامكنة فى قصته وزخرفها بروعة المخلوقات التى تعيش فيها ونشر على الطبيعة روح طفلين بريئين ، رفعهما المؤلف الى ذروة الاساطير الرمزية ، فأضفى عليهما جمالا يأخذ بمجامع القلوب . وفى هذا تتجلى عظمة برناردان وعبقريته ، ويلاحظ قارئ القصة أن الشيخ الوقور الذى ابتكره المؤلف ليقص تاريخ

بول وفرجينى ليس مجرد قاص ، ولكنه حكيم عميق يتكلم كجان جاك روسو ، ويشعر عميق الشعور بالطبيعة ، ويرغم القارئ على أن يشعر بها مثله ومن أبدع ما صوره برناردان فى قصته فضيلة فرجينى وحياتها أن يجعلها تفضل الموت على أن تخلع ملابسها وتمسك بمسلاح عارى الجسد ، لتنجو بنفسها والحياء ، كما يقول ديدرو من أجمل الأزهار فى شجرة الأخلاق - وكانت فرجينى قد دعيت الى فرنسا من قرية لها وافر المال ، شديدة الاثرة فلما أطلعت الفتاة على أوضاع الجماعة فى فرنسا وأخلاقها هالها ما رأت ، ولم تطق صبرا عليه ، فسارت المسكينة الى الجزيرة وقيل أن تبلغ الشاطئ وبول ينتظرها فى شوق ملح ، اشتدت العاصفة فاصطدمت السفينة بالصخور ، وتوفيت فرجينى على مرأى من العاشق المعمود ثم توفى بعد ذلك بول ، وكذلك أمه وأم الفتاة .

ويلاحظ قارئ القصة أنها خالية من العقد النفسية ، ومن تصوير الخلق ، ولكنه يجد فيها وصفا لجسولات بول وفرجينى ومرحهما وسقوط الامطار الغزيرة وأزمة الفراق والعاصفة التى قضت على السفينة المقلدة لفرجينى عند عودتها من فرنسا الى الجزيرة . هذه هى الحوادث ونوابض الانفعال فى القصة ، ولكن الاطار جذاب ، خلاب . انه طبيعة المناطق الحارة بغناها المستبهم ، وضروب تغيرها العجيب وليس فى القصة بلاغة فريدة ، ولكنها مليئة بتأثيرات قوية تشع الاخلاص الفريد بالفاظ خاصة طريفة . ولقد كان اثر هذه القصة سنة ١٧٨٨ عظيما فى الجماعة التى أضناها اعنات العقل . وانهكت قواها الحياة المتكلفة . وكان روسو قد أعد هذه الجماعة الى تذوق العاطفة والشعور أكثر من تذوق الفكر فجاءت قصة بول وفرجينى ، بما فيها من نضارة وبراءة وسذاجة وطبيعة رائعة . عذراء ، بلسم للنفوس ، ومهدئا للأفكار والأخلاق . ومما سبق يتبين أن برناردان كان قوى الأثر فى تجديد الأدب الفرنسى وتطور الذوق فى فرنسا وإبلاغه عتبة الابتداع أى « الرومانزم » .

لما توفر لبرناردان بعض المال مرت بخاطره فكرة العيش فى صومعة ، فابتاع فى نهاية شارع « لارين لايلانش » بعيدا عن ضوضاء المدينة بيتا صغيرا تحيط به حديقة قسمها الى ثلاثة اقسام : قسم للزهور ، وقسم للخضر ، وقسم لاشجار الفاكهة وتوالت عليه فى صومعته الرسائل من كبار الناس فضلا عن زيارتهم له . وكلفت نساء كثيرات بمؤلف « بول وفرجينى » وعرضن عليه الزواج . وبعد ظهور قصته بعامين أو ثلاثة كان يسمع فى الحدائق العامة الامهات والحاضنات يطلقن على الاطفال الذكور والاناث بول وفرجينى .

وفى سنة ١٧٨٩ غين له الملك معاشا حسنا ، ودرت عليه القصة . مالا كثيرا وفى شهر سبتمبر من العام نفسه نشر برناردان « أمانى معتزل » يدافع فيها عن الفلاحين المرهقين بالضرائب ، وعن السود

المستعبدين في المستعمرات • وكان سجن الباستيل في ذلك الوقت قد سقط ، وتكونت الجمعية الوطنية ، فاعتقد برناردان أن الثورة قد انتهت ، وبشر نفسه بعودة العصر الذهبي ، وبعهد للسعادة الانسانية طويل الأجل •

وفي سنة ١٧٩٢ عين بعد وفاة بوفون مديرا لحدائق الملك فاستقرت حياته المالية ، وشرع يفكر في الزواج وكان في الخامسة والخمسين من عمره ولا يزال صنيح الجسم قوى البنية • فتزوج من الأنسة فيليستي ديدو من أسرة مشهورة بمزاولة الطباعة • ومع انها كانت في شرح صباها ، فانها كانت تميل اليه كثيرا ، وقد رزق منها بطفلين : بول وفرجينى •

وفي سنة ١٧٩٣ لجأ برناردان الى الريف تجنباً لفضاعة الارهاب. وصادف في أول عهد الارهاب هذا عنتا من المواطنين المسلحين ولكن شعره الابيض وحبه للطبيعة ، وذكرى صلته لروسو ، كل ذلك أنقذه من المصير الاليم الذي صار اليه الكثير من أبناء عصره •

وفي سنة ١٧٩٤ عين أستاذا لعلم الاخلاق في المدرسة العليا « النورمال » وكانت قد أنشئت حديثا فألقى الدرس ، الأول الذي استهله بقوله :

« انى رب أسرة وأقيم في الريف • • » تم انقطع عن التدريس • وفي السنة التالية أنشئ المجتمع العلمى ، ودعى برناردان لالقاء محاضرات الأخلاق ، فحاول أن ينشر مذهبه في الألوهية وهو الاعتقاد بوجود الله مع انكار الوحي ، ولكنه لم يصادف نجاحا •

ثم توفيت زوجته وهو في الثالثة والستين من عمره وتركت له فرجينى وهى في الرابعة من عمرها ، وبول في الشهر الثامن من عمره • ثم تزوج للمرة الثانية من فتاة في الثامنة عشرة تدعى « ديزيرى بلفور » . أحبه حباً شديداً في قصته الخالدة • وكان مع زوجته جافاً قليلاً ، يقبل وفاءها على أنه واجب مفروض لا يستحق حمداً ولا ثناء • فهو من القلائل الذين تتناقض أخلاقهم تناقضا تاما مع ثمرات عقولهم •

وقد زاره لويس ، وجوزيف بوناپرت ، وعمره بالعطف • ثم زاره نابليون بعد موقعة « مارنجو » وحياء بكثير من الود ، حتى أن برناردان سماه « البطل الفيلسوف » ، وشبهه في خطبه له بالنسر الذى يندفع وسط العواصف ثم أثقلت ظهره الأعوام ، وبدأت العلة تهاجمه في فترات متقاربة •

وفي أول شهر نوفمبر سنة ١٨١٣ بينما كان عائداً من استراحة في الريف كعادته ، شعر بهبوط قواه هبوطاً شديداً ، وكاد يسقط على الأرض في غابة « سان جرمان » • ولكنه تحامل على نفسه حتى بلغ

حديقة منزله • فجلس على مقعد ، وجعل يطيل النظر الى الاشجار وأوراق
الأشجار المصفرة التي تسقط على الأرض ، ذابلة ميتة •

وفي ٢١ يناير سنة ١٨١٤ والأرض مغطاة بالثلوج ، كان برناردان
ملقى على فراشه وقت الظهر محاطا بأفراد أسرته وهو يعاني سكرات
الموت • ثم تمتم في صوت خافت قائلا :

« الهى » ! وأسلم الروح وهو فى السابعة والسبعين من عمره
بعد أن دون اسمه فى سجل الخالدين •

عم يعقوب الله



١٥٧ شارع عبید - روض الفرج
تلیفون ٤٠٥٨٧ - ٤٠٧٥٣ - ٤٠٨١٤ - ٤١٠١٢



١٥٧ شارع عبید - روض الفرج
تلیفون ٤٠٥٨٨ - ٤٠٨١٤ - ٤١٠١٢ - ٤٥٣٤٦

Bibliotheca Alexandrina



0603589